الفصل الرابع

قضَايا كليّة قي قراءة الشَّيْخ بيان النُّبوّة

القضية الأولَى : تحقيق القول في وحي البيان النبويّ وإعجازه .

تقومُ هذه القَضيةُ مِن أمرين :

الأوَّلُ : تحقيقُ القولِ في أنَّ بيانَ النّبوَّةِ وَحْيٌ .

والآخر : تحقيقُ القولِ فِي مَوقعِ بيانِ النُّبوّة مِن الإعجازِ ، والأمرُ الثَّاني مُترتبٌ على الأوَّل ، لذا كانَ الابتداءُ به

تحقيق القول في أنّ بيان النبوة وحي .

جاءت كلمة «وحي» في البيان القرآني واقعةً على الإنسان نبيًّا ، والإنسان غير نبيّ ، ولغيرِ الإنسان .

﴿ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴾ (النساء:١٦٣)

﴿ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ﴾ (النجم:١٠)

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (إبراهيم:١٣)

﴿ إِذۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴾ (طه:٣٨)

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ (القصص:٧)

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ (النحل:٦٨)

﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ (فصلت:١٢)

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾ (الزلزلة:١-٥)

هذه يجمعها معنى الإنباء بأمرٍ جليلٍ في خفيةٍ . والَّذي يَعنينا هنا هُو إيحاءُ الله تعالى لأنبيائه ورسولِهِ عَلَيْهِم الصَّلاةُ والسَّلامُ،وفي مقدمتِهم سيدُنا محمّدٌ ﷺ أكانَ الله تعالى يُوحِي إليه القرآنَ والسّنة ، عن طريق جبريل عَلَيْه السّلام ، أم أن الوحي عن طريقه خاصٌّ بالقرآن .

للعلماءِ فِي هذا حديثٌ وسيعٌ عميقٌ[1].

الذي هُو الأعلَى عندِي من خلال البصر بمقالات أهل العلم أنَّ القرآن كانت له طريقُه الخاصُّ بِه فِي الوحيِ بِهِ عَن طريق سيّدِنا جِبْريلِ عَلَيْه السّلام . وهـذه الطريقةُ هي التي كان يعتري سيّدنا رسُولَ الله صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْـهِ وعَلَـى آلِهِ وَصَحبِهِ من الأحوال ما هُومعروفٍ عندَ الناشئة من طلابِ العلمِ ، وأَنَّه كان وحيًا بالمعنى وصورتِه ونسَقه آياتٍ ونجوم ومعاقد وسورًا وقرآنًـا مفتتحـه أم القرآن ، ومختتمُه سورة النَّاسِ ، ليس لأحدٍ مِن البشرِ في أيّ شيْءٍ مِن هذا شرو نقير ، وكذلك طريقُ أدائه وتلاوتِه .

---

(١) لمن شاء بسطة عرفان في هذا أن يرجع إلى كتاب : مناهل العرفان في علوم القرآن . تأليف : محمد عبد العظيم الزُّرْقاني (ت: ١٣٦٧هـ) ط(٣) نشر : مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه . ٦٣/١

أمّا غَيرُ القرآن ، ولا سيّما السُّنة ، فللعلماء اشتجار قول وسيع .

غيرُ قَليل منْهم على أنّ السنة وحيٌّ ، ومنهم من ذهبَ إلى أنّ جبريل كان ينزلُ بالسّنةِ كما ينزلُ بالقرآن .

وقولهم : (كما ينزلُ بالقرآن) أمناط التشابه ، هو نزول جبريل بها على طريقةٍ أخرى ، أم نزوله بها على طريقةِ القرآن .

ظاهرُ الأمر أنّ نزوله بها ـ إذا ما ثَبُتَ ـ لا يكون بطريق نزول القرآن ، بدَلالة أنّه لم يكن يَعتري سيّدنا رسُولَ الله ﷺ عندها ما كان يَعْتريهِ عندَ نُزولِ القُرآن ، فاختلافُ الحالَيْن آيةٌ بيّنةٌ علَى أنَّ المُنزليْن ليْسَا سواءً فِي طريقَةِ التَّنزيلِ والإيحاءِ . فإذا ما ذهبنا إلى أنّ السّنة وحي ، فما مناط الوحي منها :

أهو المعنى وصورته ، أم المعنى وحده ، والصورة من صَنعة سيّدنا رسُول اللهِ صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ . ؟

ممَّا يستأنسُ به ما رواه أبو داود في كتاب «العلم» من سننه بسنده عَنْ زَيْدِ ابْنِ ثَابِتٍ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ «نَضَّرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا فَحَفِظَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ لَيْسَ بِفَقِيهٍ»(١).

فهذا دالٌّ على أنّ الحرصَ على منطوقه ﷺ أعلَى ، ممّا يستأنس به أنّ منطوقَه كمعناه ، فهو أهلٌ لأن يُحافظَ عليْه ، وأن يُبلَّغ كما سُمع . وفي قوله ﷺ : «فربّ حامل فقه . . . إلخ» ما يُفهم منه أنّه لو جاء الرَّاوي به على نحو مقارب لمنطوقه لكان الّذي في منطوقه من المعاني غائبًا عمّا كان مقاربا ،

---

(١) ورواه الترمذيّ في جامعه وابن ماجه في سننه ، والنسائي في السنن الكبرى ، وأحمد في مسنده ، الدارمي . في سننه وابن حبان في صحيحه والحاكم في المسْتدرك والحميديي في مسنده والبزار في مسنده ، والطبرانيّ في المعاجم الثلاثة ، والشافعيّ في مسنده (وصَححه الألباني)

وذلك لا يفقهُه إلا بصيرٌ ، وكَانَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنهما « إِذَا سَمِعَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَدِيثًا لَمْ يَعْدُهُ ، وَلَمْ يُقَصِّرْ دُونَهُ» كما أخبر ابن ماجه ، والدارمي في سننهما .

وروى ابن ماجه في مقدمة سننه بسنده عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي السَّفَرِ ، قَالَ : سَمِعْتُ الشَّعْبِيَّ يَقُولُ : « جَالَسْتُ ابْنَ عُمَرَ سَنَةً ، فَمَا سَمِعْتُهُ يُحَدِّثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ شَيْئًا » (صَحححه الألباني).

وكان عبدُ الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنه يمكث سنة ، لا يقول : قال رسُول الله ﷺ ، فإذَا ما قال : قال رسُول الله ﷺ أخذته الرّعدة ، ويقُول أو هكذا»

وروى ابن ماجه في مقدمة السنن بسنده عَنْ عَمْرِو بْنِ مَيْمُونٍ ، قَالَ : « مَا أَخْطَأَنِي ابْنُ مَسْعُودٍ عَشِيَّةَ خَمِيسٍ إِلا أَتَيْتُهُ فِيهِ ، قَالَ : فَمَا سَمِعْتُهُ يَقُولُ لِشَيْءٍ قَطُّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، فَلَمَّا كَانَ ذَاتَ عَشِيَّةٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، قَالَ : فَنَكَسَ» قَالَ : « فَنَظَرْتُ إِلَيْهِ ، فَهُوَ قَائِمٌ مُحَلَّلَةً ، أَزْرَارُ قَمِيصِهِ ، قَدْ اغْرَوْرَقَتْ عَيْنَاهُ ، وَانْتَفَخَتْ أَوْدَاجُهُ» قَالَ : أَوْ دُونَ ذَلِكَ ، أَوْ فَوْقَ ذَلِكَ ، أَوْ قَرِيبًا مِنْ ذَلِكَ ، أَوْ شَبِيهًا بِذَلِكَ»(صَحححه الألباني)

وروى ابن ماجه أيضا بسنده كانَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنه « إِذَا حَدَّثَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَدِيثًا فَفَرَغَ مِنْهُ قَالَ : أَوْ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ » (صححححه الألباني)

و« كان مالك يتقي في حديث رسول الله ﷺ الياء والتاء ونحوهما » . كما جاء في مسند الموطأ لأبي القَاسِمِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بنُ عَبْدِ اللهِ بنِ مُحَمَّدٍ الغَافِقِيُّ ، الجَوْهَرِيُّ المالكي (ت : ٣٨١هـ) (رقم ٤٦)

وقد كان مالك شديد التحرّي في حديثِ رسُول الله ﷺ ، كان كما أنبأ

الربيع سَمِعْتُ الشَّافِعِيَّ ، يَقُولُ : « كَانَ مَالِكٌ إِذَا شَكَّ فِي بَعْضِ الْحَدِيثِ طَرَحَهُ كُلَّهُ »

وكان أحمد بن حنبل على جلالـه في العلم والحفظِ لا يحدِّث إلا من كتاب ، أنبأ ولده عبد الله قال : ما رأيتُ أبي على حفظِه حدث من غيرِ كتابٍ إلا أقلّ منْ مئة حديثٍ »[1]

كلّ هذا يُبين لك عن عظيمِ العناية بمنطوق رسُول الله ﷺ مما يستأنسُ به على أنَّ منطوقه كالوحي من الله تعالى إن لم يكنْ وحيًا . .

وإذا ما أردْنا أن نبصرَ شأنَ الأمرِ عند شيْخنا : أبيانُ رسُول الله ﷺ عنْده مِن الوحي؟ فإنْ كان فما مناطُ الوحي : أمعناه وصُورتُه أم معناه دون صُورتِه؟

الأكثرُ ظهورًا وحضُورًا فيما جاء في كتابِ شيْخنا : « شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم » أنّ البيان النَّبوي وحْيٌ من الله سُبْحانَه وتَعالَى إلى رسوله صَلّى اللهُ وسلّم عَلَيْه وعَلَى آلِهِ وصَحبِهِ ، غيرأن ثمّ في الكتابِ ما قد أتوهّم أنا منه أنّ الشيخَ يشيرُ إلى أنَّ بعضَ هذا البيان ليس وحيًا ، إنّما هو محمديٌّ المصدرِ معنى وصُورة ، وهذا مِن حقه عليَّ أن أَتلبّثَ في بيانِه أَعرضُ ما توهمتُ لعلّي أجدُ مَن يأخذ بيدي ، فأستدركُ الصّواب :

في سياقِ مناظرته أكرمه الله تعالى برضوانه ثلاثة أحاديثَ من بابٍ ليرى ما بينها من اتفاق وافتراق :

حديث « أربع من كنّ فيه كان منافقًا خالِصًا ... » أو « آيَة المنافق ثلاثا ... » وحديث « ثلاثةٌ لا يكلّمهم اللهُ يومَ القيامةِ . . . » يذهبُ الشَّيخُ إلى أنّك إذا وضعتَ هذه الأحاديثَ إزاءَ بعضِها ألفيت فرقين ظاهرين :

---

(١) اللماع إلى معرفةِ أصُولِ الروايةِ وتقييد السماع . تأليف القاضِي عِياض بن موسَة الْيَحصبيّ (ت:٥٤٤هـ) تحقيق السيد أحمد صَقر ، ط(٢) ١٣٩٨هـ نشر دار التراث . القاهرة ، والمكتبة العتيقة . تونس . ص : ٢٢٥

أمَّا الفرق الأوّل فهو بيانٌ لِسياق الحالِ لما يصوّره البيانُ ، هذا لا مراجعة فيه عندي .

وأما الفرق الآخر ، فهو بيانُ مَخرجِ البيانِ ومرجعيّتُه ، وهذا فيه نظرٌ :

الفرقُ الأول : « أن حديث « أربع من كن فيه » أو « آية المنافق . . . » إنّما هو بيانٌ لما هو قائمٌ من أمراضِ النّفاقِ في بعضِ الأمّة ، فهو كشفٌ لواقع حالٍ يُمكن أن يستصلح ، ففي الوقت فُسحةٌ للمراجعة والتّوبِ .

بينما حديث « ثلاثة لا يكلمهم الله . . . » فهو بيانُ حالِ ثلّة مِن الأمَّة ونحن جميعًا بيْن يدي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يومَ القيامة ، فهو كشف لواقع لا يتأتي فيه الاستصلاح والهَوْدُ . وهذا مُسلّمٌ للشيخ .

والفرق الآخر : أن قول النبيّ صلّى اللهُ عليْهِ وعلَى آلِهِ وصَحبِهِ وسَلّم ـ : « أربعٌ مَن كن فيه ... أو قوله » آية المُنافق . . . « ليس من بيان النُّبوّة المحضِ ، بل هو ممّا استنبطه النّبيُّ صلّى اللهُ عليْهِ وعلَى آلِهِ وصَحبِهِ وسَلّم من بيان الوحي (الكتاب) أو استنبطه بفراسته من واقع الأمةِّ ذلك ممّا قد يتسلل إلى قلبِ القارئ قول شيخنا : « لو قلت إنّه من استنباطه عليْه السّلام ومن اجتهادِه واستخراجِه ومتابعته لمرضِ قُلوبِ أهلِ النفاقِ ومواقعها في الكتاب .

أقولُ : لو قلت هذا لَجازَ أن يُقبلَ منك ، بَلْ لو قلتَ : إنّ هذا الذي استخرجَهُ رسُول الله ـ صلّى اللهُ عليْهِ وعلَى آلِهِ وصَحبِهِ وسَلّم ـ من أحوالِ هذه الطبقةِ مِن البشرِ ، وهم المنافقون يُمكنُ لأهلِ العلمِ بأحوالِ الناسِ . . . . ، وأهل الحِكمةِ والبصيرة منهم يُمكنُ أن يصِلوا إلى ذلك ، وأنّه يُمكنُ أن تقرأ مثلَ في كتابٍ لِباحثٍ فِي أحوالِ الغرائزِ الإنسانيةِ .

أقولُ : لو قلتَ هذا لَكانَ كلامًا جائزًا أن يُقبل منك ، بخلافِ حديث « ثلاثة لا يُكلمهم الله » لأنَّ هذا لابدّ أن يكون وحيًا . . . وإذا كان كلامُه صلّى اللهُ عليْهِ

وعلَى آلِهِ وصَحبِهِ وسَلّم كلّه مطبوعًا بِخاتمِ النبوةِ ، فإنَّ هذا الخاتمَ أظهر فِي بعضِ كلامِه من بعضٍ ، وخاتم النّبوةِ هنا أظهر جدًّا»[1].

صدرُ كلامِ الشَّيْخِ أنّ من بيانِ سيِّدنا محمَّدٍ صلّى اللهُ عليْهِ وعلَى آلِهِ وصَحبِهِ وسَلّم ليسَ من بيان الوحي ، أي ليس مخرجه إعلامٌ بغيبٍ من الله تعالى وحيًا إليْه ، بلْ هوإلى الحِكمةِ والفِراسةِ التي هو أميرها ، وأنّه صَلّى اللهُ وسلّم عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ استنبطه من الوحي (الكتاب) أو من خلالِ التّفرسِ فِي أحوالِ النَّاسِ ، هو قراءة له من كتاب الوحي (القرآن) أو كتاب الكونِ والحياة ، فالطابعُ المُحمَّديَّ ، لا النبويّ هو الحاضرُ في بعضِ البيان ، ولا يكون هذا وحيًا ، بل فراسة في قراءة الوحي أو الكونِ . هذا ما فهمتُ منْ صدر كلام شَيْخنا ، وهو محلُّ نظرٍ سيأتي .

وعجزُ كلام الشيخ يفهم منه أنَّ كُلَّ بيانه صلّى اللهُ عليْهِ وعلَى آلِهِ وصَحبِهِ وسَلّم مطبوع بخاتم النّبوة ، وأنّ بعضه يتفاوت في هذا ظهوراً لا حضورًا ، فجميعُه طابعُ النُّبوّةِ فيه حاضرٌ ، وهذا يلزمُه أن يكونَ كلامه صَلواتُ اللهِ وسلامه عليْهِ وعلَى آلِه وصَحبِهِ مِن أفقِ الوحيِ ؛ لأنّه لا يكونُ عليه طابعُ النُّبوة إلاَّ إذا كان كذلك ، فلا يُوصفُ بيانُه بأنَّه بيانُ النُّبوّةِ أوعَليْهِ طابعُ النُّبوّة إلا كان مِن أُفقِ الوحيِ .

يقول أعزّه الله تعالى : «وإذا كان كلامُه صلّى اللهُ عليْهِ وعلَى آلِهِ وصَحبِهِ وسَلّم كلّه مطبوعًا بِخاتمِ النبوةِ ، فإنَّ هذا الخاتمَ أظهر فِي بعضِ كلامِه من بعضٍ ، وخاتم النّبوةِ هنا أظهر جدًّا»

فطابع النبوة هو طابع الإنباء بالغيبِ ليس للمُحمَّدية في محْمُولِه مِنْ معَانِي الْهُدَى شيْءٌ .

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ١/٧٢، ٧٣ .

ما جاء في صدر كلامه من أن بعض بيانه محمديّ وبعض كلامه نبوي هو محل النظر عندِي ذلك أنه يفتح شُبهةً تتمثّلُ فِي أنّه إذا كان بعضُ بيانه كذلك ليس وحيًا ، فهل لأحدٍ أن يتوقفَ فِي الأخذِ به ، أو أن يعارِضَه ، أو يردّه ، فهو ممَّا يُردُّ عليْه ، فيكون قولُهم : كلٌّ يؤخذُ منه ويردُّ عليْه خلا رسول الله صلّى اللهُ عليْهِ وعلَى آلِهِ وصَحبِهِ وسَلّم قولاً غيرَ مُسلّم ؛ لأنَّ ما كان من بيانه محمديًّا ، فهو من نظره واجتهاده وفراسته ، وما كان كذلك كان محلاً للتَّوقّف في الأخذِ به . وبهذا لا يُفسَّقُ مَن توقّفَ أوْ رَدَّ فَضلا عَن أن يُكفَّرَ .

وهذا يفتحُ بَابًا في وجه الأغرار وأشباه العلمانِيين وأشباه الليبراليين ـ أقول أشباه ، لأنَّ العلمانيين والليبراليّين لَيسُوا بحاجة إلى هذا ، فهمْ يتوقّفون في كلِّ بيانِه صلّى اللهُ عليْهِ وعلَى آلِهِ وصَحبِهِ وسَلّم ؛ فالنبيّ صَلّى اللهُ وسلّم عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ عندهم رجلٌ وهم رجال بل أن معارفهم وثقافتهم وعقُولهم أوسع وأغزر وأنفذ من معارفه وثقافته وعقله . . !!!!!

أقُولُ سيفتح هذا أمامَ الأغرار وأشباه العلمانيين وأشباه الليبراليين بابًا يردُّون بِه كلَّ حديث لا يتوافقُ مَع أهوائِهم ومصالحهم بدعوَى أنَّه من البيانِ المُحمديّ الذي هو استنتاج واجتهاد في فهم القرآن أو فهم الكون والحياةِ ، ولا غضاضة عليهِم إن اجتهدوا كما اجتهد ولا غضاضة عليهم إن توقفوا في الأخذ باجتهاده صلّى اللهُ عليْهِ وعلَى آلِهِ وصَحبِهِ وسَلّم وقراءته القرآن أو الأكوانَ ، والعلمانيون يبْتهجون بِدعْوَى أنّ النبيّ ﷺ مجتهدٌ في ما يقُول ، وهذا يلزَمه عندهمْ أنّ كل مُجتَهدٍ يُصِيبُ ويُخطئُ ، وهومثلهمْ .

ذلك هو مجملُ النَّظر .

لك أن تجيبَ عنْ هذا بأنَّ ما هو أقربُ إلى البيانِ المُحمّدي منْه إلى البيانِ النّبويّ له مِن حصَانةِ العقلِ الفِطريّ ومن الواقِعِ المَشهُودِ مَا يُحاجزُ كلَّ ذي

عَقلٍ أن يتوقّفَ فِيهِ ، فضلاً عَنْ أن يتردّدْ . ما هو إلى البيانِ المُحمّديُّ أقرب يَحوطُه منطقُ العقلِ الفطريّ ، لا يُمكنُ لعقلٍ مُعافَى مِنْ داءِ الغفلَةِ والشُّبهةِ والضّلالةِ والجهالةِ أنْ يتوقّفَ ، فهو مِن مسلماتِ العقلِ الآدميّ[1]

وما كان كذَلِكَ كانتْ لَه من الحصَانةِ مَا للبيانِ النَّبويّ الذّي هُو إنباءٌ بوحيّ مَحْضٌ ، فكلٌ مُحَصّنٌ من التّوقفِ فيه ، وإن اختلفتْ جهةُ الحَصَانةِ والحِياطةِ والمُحاجَزةِ .

وَأَمرٌ آخر : ما هو مُحمّديٌّ فِي بيانِهِ هُو صُورةُ المعنى الّذي هو وحيٌ ، وهُو فِي صِناعتِهِ صُورة المعنى الموحَى إليْه مطابقٌ شَأنَ هذَا الْمعنَى مِنْ كونِه وحيًّا ، قصُورته عندي إنْ لَمْ تكنْ وحيًا كَوحي المعنَى فِي الكيفيّةِ ، فهيَ كالوحيِ إلهامًا وتوفِيقًا وتسْديدًا ، لا محيدَ عَنه ؛ لأنَّ فِي الحيدةِ عَنْهُ مفارقَةً للمطابقَةِ ، وتِلْك الّتِي لاتَكُونُ منْه ﷺ ، وهذَا مَا جعَلَ صُورةَ الْمعنَى فِي بيانِه لايُصلّى بِها ، ولا يَحرمُ مسُّ قرطاسٍ رقّنتْ فِيه ، وبرغمٍ مِنْ ذلِكَ يُدركُ أهلُ العلمِ مَا لِهذِهِ الصّورةِ مِن قُدسيةٍ علَى نحو ما أُثر عن البخاريّ ومالك وغيرهما إذا ماأرادوا أن يحدثُوا عن رسُول الله صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ ، كانوا يتخذون سمتًا وحالاً لا يكونُ إلا من تقديسِهم ما هو قائمون لصِناعتِه . .

* * *

تحقيق القول في إعجاز بيان النبوّة .

حرى أن أسْتفتح بأنّ المعجزة لها مدلولٌ لغوي يتمثل في ماكان خارقًا

---

(١) سبق أن فرقت بين ما هو إنساني وما هو آدميّ ، العقلُ الآدميّ عقلٌ فطريٌّ طهورٌ من داء الشبهاتِ والضلالات والأهواء المبيرةِ وأصحابُ هذا العقل هم أولو الألباب .

للعَادة . ولها مدلول اصطلاحيّ عند أهلِ العلم . يضيف إلى المدلول اللغوي شرطًا يتمثل في اقتِرانها بدعوى النبوة التَّحدّي[1]

وابن تيمية يذهب إلى أنّ الإعراب عنها بـ«الآية» هو الأعلى ، فهو المصطلح القرآني[2].

---

(١) «المعجزة فعل يظْهر على يَدي مدعي النُّبُوَّة بِخِلاَف الْعَادة فِي زمَان التَّكْلِيف مُوَافقا لدعواه وَهُوَ يَدْعُو الْخلق إِلَى معارضته ويتحداهم أَن يَأْتُوا بِمثلِهِ فيعجزوا عَنهُ فيبين بِهِ صدق من يظْهر على يَده وَمَا من رَسُول من رسل الله تَعَالَى إِلا وَقد كَانَ مؤيدا بمعجزة أَو معجزات كَثِيرَة تدل على صدقه»(التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين ، تأليف : ابي المظفر : طاهر بن محمد الأسفراييني (ت: ٤٧١هـ) تحقيق : كمال يوسف الحوت . ط(١) عام ١٤٠٣هـ . نشر : عالم الكتب ـ لبنان . ص : ١٦٩

أو الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن الإسلام ، تأليف : شمس الدين القرطبي : أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري (ت : ٦٧١هـ) تحقيق : أحمد حجازي السقا ، نشر : دار التراث العربي ـ القاهرة . ص : ٢٣٩

أوشرح العقيدة الطحاوية ، تأليف : صدر الدين محمد بن علاء الدين عليّ بن محمد ابن أبي العز الحنفي ، (ت : ٧٩٢هـ) تحقيق : أحمد محمد شاكر . ط(١) ١٤١٨هـ نشر : وزارة الشؤون الإسلامية ، والأوقاف والدعوة والإرشاد السعودية . ص٥٠٧

(٢) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ، تأليف تقي الدين أبي العباس أحمد ابن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني(ت: ٧٢٨هـ) تحقيق : علي بن حسن ، وآخرَيْنِ . ط(٢) عام ١٤١٩هـ . نشر : دار العاصمة ، السعودية . ٤١٢/٥

أو : النبوات . للتقي أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني (ت : ٧٢٨هـ) تحقيق : عبد العزيز بن صالح الطويان . ط(١) عام : ١٤٢٠هـ. نشر : أضواء السلف ، الرياض . ١٢٩/١

مجمل الأمر أنّه لا يكفِي في المعجزة أن تكون خارقة للعادة ، لا يسْتطاع مثلها ، بل لا بدَّ من شرط التحدّي بها إثباتًا لصدق دعوَى النبوة ، فإذا لم يتحقق ذلك الشرط لا تكون معجزة اصطلاحًا .

وبناء على ذلك لا يكونُ لسيّدِنا محمّدٍ صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ إلا معجزة واحدة هي القرآن ؛ لأنّه الذي تحدَّى به ، ولم يتحد بغيره ، وإن كانت هنالك خوارق قد وقعت منه صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ . ولم يتحد بها .

والذي هو أعلَى عندي أنَّ شرطَ التّحدّي ليس شرط صحةٍ ، بلْ هو إلى شرطِ الحُسن أقربُ ، وأنَّ كلَّ ما وقع من الخوارق من رسُول الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ هو من المعجزاتِ ، وهي جدُّ كثيرة ، وكان الرَسول صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ يُخبرُ بأشياء تكونُ فتكونُ كما أخبر فيقولُ إنّي رسول الله ﷺ ممَّا يهدِي إلى أنَّ ذلك آيةٌ على رسَالتِه .

والأستاذ الأكبر محمود شاكر يذهب إلى الإعراب بالإبلاس بدلاً من الإعجاز ؛ من أن الإعجاز يقتَضِي أن تكون هنالك محاولة ، يعقبها عجز ، فلا عجز إلا بعد محاولة ، والإبلاس قطع الأمل من النفسِ عن أن تحدثه بالمحاولة ، وهذا أليَق بحال القرآن .[1]

* * *

يصرّح الشّيخُ بأنَّ بيان النُّبوة بيانٌ غيرُ معجز ، وإن كان وحيًا ، فهذا من مناطاتِ الفرق بيْن البيانِ القرآنِيّ والبيان النّبوي . يقول : « ومِن المفيدِ أنْ نَضعَ كلّ حديثٍ بِجانبِ الجملةِ القُرآنية التي استخرجَ منها ثُمَّ تُراجعُ المعنى فِي لفظ القرآن ، وفي لفظ الحديثِ ، وأن نحاول أن نتدبر وأن نتأمّلَ الفرقَ بيْن

(١) ينظر مداخل إعجاز القرآن . الناشر : مطبعة المدني بالقاهرة ودار المدني بِجدة ، ص٤٥ .

كلامِه ﷺ الّذي هُو صَنعةُ لسانهِ صلواتُ الله وسلامه عليْهِ ، وبيانِه (أيْ القرآن) الّذي أنزلَه الله تعالى عليْه بلسانه العربيّ المبين . وهو الفرقُ بيْن المُعجِز ، وغيرِ المُعجِز . . . » [1]

مجملُ هذا أنَّ نَفيَ الشّيخِ الإعجازَ عن بيان النّبوّة إنّما هُو نفيُ الإعجازِ الّذي للبيانِ القرآنيّ ، وليس معنى هذا النَّفي أنَّه يذهبُ إلى أَنّ بملكِك أنْت أوْ مَن استجمعتَ مِن النّاسِ أن تقولَ قولاً يُضارعُ بيان النَّبيِّ صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ ، فهذا لا يقولُه مَن ذاق شيْئًا مِن بيانِ العربيَّة ، فكيف بشيخ علماءِ بلاغةِ العربية في زمانِه؟!!

تفصِيل القول :

ما في البيان النبويّ لا سبيل لأحد أن يأتي بما يتآخى معه في محموله من معاني الهدَى ، وفي صورةِ هذا المعنى ، لأن صُورة المعنى تنبثقُ منه ، أليست صُورته ؟

ولا سبيلَ لأحدٍ أن يأتِيَ بما يتآخَى معه في مساقاتِه الَّتي يستثمر فيها حال قولِه ، وحال تنزيله على واقعِ الأمّة .

والشيخ لا يكتَفِي بذكرِ هذا في موطن بل تراه يصرف البيان عن هذا في مواضِع من كتبه ، لتَتمكَّنَ الحقيقةُ الّتي يراها في قلوبِ القُراء . تراه وهو يُناظر بين رواية رفع كلمة (صفائح) ورواية نصبها في قول رسُول الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ : « مَا مِنْ صَاحِبِ ذَهَبٍ وَلاَ فِضَّةٍ لاَ يُؤَدِّى مِنْهَا حَقَّهَا إِلاَّ إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ صُفِّحَتْ لَهُ صَفَائِحَ مِنْ نَارٍ فَأُحْمِىَ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ ... ». فيرى أنّ رفعها لا يدلّ على أن هذه الصفائح هي ذهبه وفضته التي لم يُزِّكها ،

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم ١٤٦/١ .

وأنَّ النَّصبَ يجعلُ نائبَ الفاعلِ هو الذّهب والفضة أيْ صُفّحت له الذهبُ والفضة صفائح ، فهُو يُكوَى بها ـ يقول عن رواية النصب :

« وهذا هوالموافقُ للآية الَّتي هي أصلُ الحديثِ : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ۝٣٤ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ﴾ (التوبة:٣٤،٣٥)

وهذا ظاهرٌ في أنَّ الذي يُحمى عليهِ في نارِ جهنَّمَ هُو المكنوزُ الَّذي لم تنفقْ زكاتُه فِي سبيلِ الله تعالى .

والحديثُ قد اقتبسَ من هذه الكلمة قوله عليْهِ السّلامُ : « فأحمي عليْها فِي نارِ جهنّم ، فيكوى بها » إلى آخره ، وقد تغيّر نسقُ الحديثِ عن نسقِ الآية تغييرًا خفيفًا :

الحديثُ يقُولُ : إذا كان يومُ القيامةِ صُفحَتْ ، وعبّر بالماضِي عن المستقبلِ ؛ لأنَّ ما هُو للوقُوعِ كالواقِعِ ، وكأنّه وقعَ ، وسيّدنا رسُولُ الله صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعلَى آلِهِ وَصَحبِهِ يقصّ لنا قصّته .

والآيةُ تقولُ : ﴿ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ فأشارتْ إلى أنّه حدثٌ سيقعُ لاحظْ الفرقَ بيْن « فأحمى عليْها » وبيْن « يوم يُحمَى عليْها » وهذا التغييرُ الخفيفُ الَّذي خالفَ نسق الآية ذهب معه إعجازها البيانيّ ، وصارتْ فِي الحديثِ من كلامه ﷺ ، وإن بقيتْ جزالةُ القرآنِ مَع ما بقِي مِن ألفاظِهِ في كلامِه ﷺ .

ومثالُ هذا أن أقولَ : أقسمَ ربنا بالعصْرِ على أنّ الإنسانَ فِي خُسرٍ . هذا شيْءٌ ، وقولُه تعالى : ﴿ وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ﴾ (العصر:١،٢) شيءٌ آخرُ ؛ لأنّ تفكيكي لنسقِ الجملةِ القرآنية في أيّ عنصرين من عناصرها يذهبُ

بإعجازها السّاكن فِي نسقِها الذي نزلَ بِه جبريلُ عليه السلامُ ، ورحم الله عبد القاهر الذي تعلمنا منه هذا ، فقد كان يهتدِي بهدي الله»[1]

هذا قاطعٌ في أنّ بيان النبوة مهما كان علوّه وتبيينه بيان القرآن فإنّه يفقد ما يجعله غيرَ معجز في نظمه وإن احتفظ بما في القرآن من جلال المعنى ، وكأنّ الشيخ يذهبُ بك إلى أنّ أصل المعنى المُستكن في بيان النُّبوّة هو من معنى القرآن فلمّا صوره رسولُ الله ﷺ لمْ يبق فيه ما يُحقّق له ما كان له في بيان القرآن عنه من الإعجاز ، وإن بقي له جزالةً لا تكفي وحدها أن تجعله معجزًا ، وهذا يُفهم منه أنَّ الجزالة الباقية في البيانِ النبويّ مصدرها أصلُ المعنى القرآنيّ المُستكِنّ فيه .

وعلى الرَّغم من تقرير الشيّخ أنَّ بيان النُّبوة غيرُ مُعجز ، فإنّه يذهبُ إلَى أنَّ بيانَه ﷺ أسبقُ بيانٍ ، وأقربُهم إلى هذه الفِطرةِ الّتي هي النَّهجُ الأعلَى فِي التّعبيرِ عَن المعنى أيّ معنى ؛ لأنّه عليْه السلام أفصحُ مَنْ كانوا ، وأَفصحُ مَن سيكونُ إلى يوم القِيامة ، وكانتْ هذه الأحاديثُ الّتِي هِيَ أبناءُ أبٍّ وأُمٍّ أقربَ إلى النّهجِ البيانِيّ الّتِي يستطيعُه لسانُ البشر ، فليس لأحدٍ أن يتجاوزَ هذه البلاغةَ النّبويّةَ فِي الإبانةِ عَن هذه المعانِي ، وإنّما أدركَ جيلُ المبعثِ الإعجاز فِي الكتابِ أوّل ما سمعوه ، لأنَّهم رأوا فِيه النّهجَ الأعلَى ، والمَنزع الأعلى ، والسّمت الأعلى فِي العِبارةِ عَن كلّ معنًى تناوله ، فإذا كان هناك نهجٌ أعلَى ، وكأنّه هو فطرةُ بيان هذه المعنَى ، وهُو الّذي تَسعَى إلَيْه الألسنة ، ويتقدمها لسانُ سيّد الخلقِ ، فإنّ الّذي هو في الكتابِ هو واقع الحُلُم البيانيّ الذي كان يَسعَى إلَيْهِ الكلّ ، ولَم يصلْ إلَيْه أحدٌ ، وقد ذكر الرّافِعيُّ شيئًا مِن هذا المعنى ، ولكنَّه ليس في

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم ٥٧٣/٢

هذا الموضُوعِ الذي أنا فيه ، والّـذي أثـارَه تلـك الأحاديـثُ التـوائمُ في طريقـة الإبانةِ ، والمختلفاتُ في المعانِي »[1]

غير خفيّ أن الشيخَ يذهبُ هُنا إلى أنّ أسبقِيَّة البيانِ لا تعـني إعجـازَه ؛ لأنّ الأسبقية لا تكون إلا في نسق متقارباتٍ بينها تفاضل وإن كان شاسِعًا ، يَحُـوزُ رأسَهَ دائمًا نمطٌ من البيان . أمَّا الإعجاز فليس هنالك نسـق متقاربـات . بـل إذا ذكر ، فلا يذكر إلا وحده وذلك للقرآن وحده ، فهو متفـردٌ تفـرّد المـتكلّم بـه سُبحانَه وتعالى .

وانظر قوله : « أسبقَ بيانِ ، وأقربهم إلى هذه الفطرة » جعلُه في مقام مفاضلة هادٍ إلى أنّـه من جنسِ كلامِ النّاسِ وإنْ بزّهم وعلا عليهم أجمعين ، فليس عليه طابع الألوهية ، وإن كان المعنى قد أوحاه الله تعالى إلَيْه .

وانظرْ قوله : « أقربهم إلى هذه الفطرة » فهـو دالٌّ علـى أن مخرجَـه الفطـرة البشريّة النّقاءِ ، والقرآنُ ليس كذلك ، فالفرقُ بيْن بيانِ النّبـوة وبيـان القـرآن لـه وجوه عديدة مِن أظهرها (أقواها) مخرج كلِّ معنًى ومبنى .

القـرآنُ كلـمـةُ اللهِ عـزّ وجـلّ ، والبيانُ النّبويّ كلـمـة سيّدِ الخـلـق ، وفـرق لا يُحاطُ اتساعُه بين المقامين . هوالفرق بيْن الله سُبْحانَه وَتَعـالَى ، وبيْن كـلّ العالمين أجمعين . لا سَبيل إلى تصورِهِ فَضْلاً عَن الإحاطَةِ بِه .

أضِفْ إلى هذا أنّ القرآن يدركُ أصحابُ البيان بمجرد سماعه إعجازَه ، ولذا لا تُحدِّثُ عاقلا نفسُه أن يحوم حول الرّغبة في أن يقول قريبًا منه ، وهـذا هـو الإبلاس ، فالقرآن إعجازه إعجاز إبلاس . كما قال أبو فهر محمود شاكر[2].

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ٦٦/١، ٦٧ .

(٢) مداخل إعجاز القرآن . الناشر : مطبعة المدني بالقاهرة ودار المدني بِجدة ، ص٤٥.

وتبصر قول الشيخِ : « هذه الأحاديثُ الّتِي هِيَ أبناءُ أبٍّ وأُمٍّ أقربَ إلى النّهجِ البيانِيّ الّتِي يستطيعُه لسانُ البشر ، فليس لأحدٍ أن يتجاوزَ هذه البلاغةَ النّبويّةَ فِي الإبانةِ عَن هذه المعانِي » فهذا دالٌّ على نسق التقارب والانتهاء إلى استحالة أن يتجاوزه أحد ، فمجرد نعته بأنه أقربُ إلى . . . قاطعٌ بأنه غيرُ مبلس ، لأنّ الإبلاس ، قطع تحديثِ النفس بالمُقاربة . وهلْ يُمكن أن يذهب أحد من أهل العلم بالبيان أن تحدثه نفسِه بمحاولة المقاربة لا المُنافسةِ .

فنفيُ الشّيخِ الإعجازَ عَن بيانِ النّبوّةِ لا يَعني أنّه ذاهبٌ إلى إمكان أن يكونَ في كلامِه ﷺ ما يُمكن أن يُنافس وأنْ يُعطسَ بغبارِه ، كلاّ .

مقامُ الشّيخ في العِرفان بأقدارِ البيانِ لا يتوقّفُ أحدٌ البتَّة في التّسليم له بأنّه فارسُه في زمانِه . هذا المقامُ يحاجزُ كلَّ مُنصفٍ عَن أنْ يتوهَّمَ مجرَّد توهّم أنّ الشَّيخَ يُلْمِحُ إلى إمكانِ أن يأتيَ بيانٌ يُقاربُ بيانَ النُّبوَّةِ إنْ في معناه أو فِي مَبناه .

الذي أوقنُه غيرَ متعجّلٍ ولا مترخّصٍ أنّ بيانَ القرآنِ الكريم مُعجِزٌ مُبْلِسٌ اتخذَه النَّبيّ ﷺ آيةً على أنّه رسُولُ الله ، وبيانُ النّبوة مُعجِزٌ لمْ يتخذهُ النبيُّ ﷺ أية على أنَّه رسُولُ الله. وهذا الإبلاسُ في حقّ البيانِ القرآنيّ آتيه مِن أُفق جلالِ الإلهيّة .

وأنتَ لا يُمكِن أن تجد بيانًا غيرَ القرآن يقال فيه حقا وصدقًا : ﴿ **لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ (الحشر:٢١) تبصّر الفاصلة : ﴿ **لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ وتبصَّر كيف أنّ الله سُبْحانَه وبِحمدِه أتبعَ هذه الآية المُصورةِ جلالَ البيان القرآنى بذكر أسمائه الحسنى : ﴿ **هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ**

عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ (الحشر:٢٢-٢٤)

مُجملُ القول في القضيّة :

أذهبُ إلَى أنَّ بيانَ النُّبوّة بيانٌ معجزٌ ، لا قِبلَ لأحدٍ أنْ يأتِيَ بمَا يُقاربَه البَتَّةَ لا فِي مَحموله من معاني الهدَى ، ولا في صُورة محمولِه ، ولا فِي مَنهَجِ تولُّجِه فِي القُلوبِ ، ولا فِي أفاعِليهِ فيها ، ولا فِي مَساقاتِه الَّتي يُجريه فِيها .

بَلْ أزعُمُ على بصِيرةٍ ، أنّه صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ لَوْ لَمْ يَكُن القرآنُ هُوَ المُعْجزةُ الّتي تَحدَّى بِها ، والّذِي استدَلّ بِها علَى أنَّه رسُولُ من عندِ اللهِ سُبْحانَه وبِحمدِه لَوْ أرَادَ أن يَجعلَ بَيَانَهُ هُوَ المُعجِزَةَ الَّتِي يَتحدَّي بِها ، والآيةَ الدَّالةَ فِي حُسنٍ وتمامٍ وتبرجٍ (إحكامٍ) علَى أنّه رسولُ الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ لكانَ له ذلك .

لذلِك أفهَمُ من قوله ﷺ : « أَلاَ إِنِّى أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ » . (أبو داود : السنة) أنَّ مِن وجوه المِثليَّة أنَّه لا يُمكِنُ أن يُؤتَى بِمثلِه . . . ، فهُوَ صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ أُوتِيَ مُعجِزتيْن :

الأولَى : معجزةٌ وقعَ بِها التَّحدّي (القُرآنُ) .

الأخرَى : مُعجزَةٌ لَم يقعْ بِها التَّحدّي ، (بيانُ النّبوّة) .

وقوله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ (أُوتِيتُ) فيه من براعةِ الاستهلال ما فيه ، ومِن ذلِك أنّه لَم يكُنْ لَه مِن الأمرِ شيْء فِيهما : القرآنِ والسّنّة فَهُما عَطِيَّةُ الله سُبْحانَه وَبِحمدِه ، وإنْ اختلفَتْ سَبيلُ العطيّة لكلٍ .

وفي الإعراب عن بيانِه ﷺ بأنه (بيان نبوة) دلالة على أنّه آتٍ من أفق « النّبوّة » التي هي الوحي ، ولذا كان بيانًا يَصنع أمةً لها تاريخُ الأرض من بعد ، كما يقول الرَّافعي ، وهو كما يقول : فهو كلام كلّما زدتَه فكرًا زادك معنى ،

وتفسيره قريبٌ ، قريبٌ كالرّوح في جسمِها البشري ، ولكنَّه بعيدٌ بعيدٌ كالرّوحِ في سرِّها الإلهي ، فهو مَعك على قدْر ما أنت معَه ، إن وقفتَ على حدٍّ وقفَ ، وإن مدَدت مدَّ ، وما أديّت به تأدَّى ، وليس فيه شيْءٌ ممَّا تراه لكلّ بلغاءِ الدُّنيا مِن صِناعةِ عبثِ القولِ ، وطريقةِ تأليف الكلام ، إنّما هُو كلامٌ قيلَ ؛ لتصيرَ به المعانِي إلى حقائِقها ، فهُو مِن لسانٍ وراءَه قلبٌ ، وراءَه نورٌ ، وراءَه اللهَ جل جلاله »[1]

* * *

(١) من وحي القلم . لمصطفى صادق الرافعي ، مطبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب . سلسلة مكتبة الأسرة عام ٢٠٠٣م ٣/٨-١١ .

obeikandl.com

القضية الثّانية

المجاز في بيان الوَحي أسماءَ الله تعالى وصِفاتِه وأفعالِه

منطقُ العقلِ الفطريّ هو الرَّغبةُ عن الانسياقِ إلى القولِ بالمجازِ حين لا يتأتَّى له أن يُدرِكَ كيفيَّات الأحداثِ .

ذلك هو العروةُ الوثقَى ، لأنّه إقرارٌ بأنّ لهذا العقلِ المخلوقِ لله ربّ العالمين حدٌّ يقفُ عندَه ، وطاقةٌ لا سبيلَ له إلى تجاوزِها ، وأنّه كَمثلِ كلّ مخلوقٍ لله سُبْحانَه وتَعالَى غيرُ مطلق القدرة والفعلِ والمجال ، فَما مِن مَخلوقٍ إلا وحِليتُه العجزُ والعَوزُ . فلا يقالُ في شيْءٍ مَخْلوقٍ البتَّة إنَّه بكلِّ شيْءٍ عليمٌ ، وإنّه على كلّ شيْءٍ قدِيرٌ .

فمَن ذهبَ إلى أنَّ مِن العقولِ عقلاً له أن يَسْعَى إلى تصوّر حقائقِ المعاني والأشياءِ الغيبيّة وكيفيّاتها فكأنَّ لسانَ حالِهِ يقولُ : أنا لا أُومِنُ إلاّ بِما يَرَى عقلي وما يُحيطُ به .

جعلَ مِن عقلِه المُطلق مَصْدَرَ عِرفان ، بلْ جعلَ مِن عقلِه الأجردِ إلهًا يخضعُ لسلطانِهِ وتِلك هِي الحالقةُ الحارقةُ .

وإذا ما كان جمهرة أهل العلم إنْ لم يكنْ عظمهم قديمًا وحديثًا على أنّ المجاز سبيلٌ من سُبلِ الإبانةِ عن المعاني المكنونة في الصّدورِ ، وإيصَالها إلى القلوبِ وتمكينها فيها فإنَّ الَّذي يجبُ أن نكون منه على ذكر واستيثاقٍ أن ذلك ليس بالمطلقِ في كلّ معنًى[1].

---

(١) بعض من أهلُ العلم قالوا إنَّ البيان كلّه حقيقة ، سواء كان بيان وحي أو غيرِه ، وأنّ كل كلمةٍ في سياقها وقرائنها هي دالة على معناها دلالة حقيقية ، وأنَّ الكلمة==

ثَمَّ معانٍ لا يقالُ فيها بالمجاز ؛ لأنَّ المجاز يقالُ بِه حين لا يكونُ العقلُ قادرًا على إدراك الحقيقةِ أو كانتْ الحقيقةُ عاجزة عن الوفاء بمرادِ المُتكلمِ .

يقُولُ أبو الحسن الرُّمانيّ (ت : ٣٨٤هـ) : « وكلّ استعارة حسنة فهي توجبُ بيانًا لا تُوبُ منابه الحقيقةُ ، وذلك أنه لو كان تقوم مقامه الحقيقة ، كانت أولى به ، ولم تجز الاستعارة . » (١)

قوله : « لا تنوبُ منابَه الحقيقة » قولٌ حكيم ، فالمَجاز ، ورأسُه الاستعارة ، يَكون لمعانٍ لا قِبَلَ للحقيقةِ أن تكونَ لها ، ممَّا يجعلُ الذهاب إلى الاستعارة ضرورة إفهامية ، وهذا الذي لا تنوبُ الحقيقةُ فيه منابَ المجازَ (الاستعارة) ليس هو أصلَ المعنى غير المُصوّر ، بل ما هُو طَلبة أربابِ البيانِ ، أمَّا أصلُ المعاني البشريّة غيرِ المصوّرة ، فالحقيقةُ مقتدِرةٌ على أن تقومَ بِها .

والقول في « المجاز » قبولاً وردًّا ليس مناطُه المعاني البشريّةَ ، ولا معاني الوحي الّتي ليستْ من باب أسماءِ الله تعالى وصِفاتِه وأفعالِه ولا ما يتعلّقُ بالغيبِ . فمَن نازع في القول في غيرِ باب أسماءِ الله تعالى وصِفاتِه وأفعالِه

== خَارج الاستعمال لا ينظرإليها ، ولا توصفُ بأنها حقيقة أومجازٌ ، فالعِبرة بالاستعمالِ ، وهي موضوعة لما استعملتْ فيه وضعًا حقيقيًّا . وليس هنالك وضعٌ متعيّن لكل كلمة خارجَ الاستعمالِ إذا عدلتْ عنه كانتْ مجازًا ، الاعتداد بالاستعمال ، فحيث حلت في سياقٍ وقرائن ودلت على معنًى فذلك معناها الحقيقيّ .

(١) النكت في إعجاز القرآن . تأليف أبي الحسن الرماني : علي بن عيسى بن علي ابن عبد الله . (ت : ٣٨٤هـ) ط(٣) عام ١٩٧٦هـ ضمن : ثلاث رسائل في إعجاز القرآن [سلسلة : ذخائر العرب (١٦)] تحقيق : محمد خلف الله ، ومحمد زغلول سلام ، نشر دار المعارف بمصر ، ص : ٨٦

وما يتعلّقُ بالغيبِ كان الآنّ منازعًا فيما فرغَ منه ، واجترار القولِ في ذلك هو من إضاعةِ العمرِ والجهد إلا في مقامِ التّعليم . .

* * *

في تلقي الشيخِ قولَ سيّدنا محمّد صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ : « مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ خَرَجَتْ خَطَايَاهُ مِنْ جَسَدِهِ حَتَّى تَخْرُجَ مِنْ تَحْتِ أَظْفَارِهِ» . ينبئُ أنه يصعُبُ عليْهِ أن يجد « وجهًا للمجازِ مِنْ خروجِ خطايَا الرّجلِ مِن تحتِ الأظفارِ .

والقَولُ بأنّ هذا منْ « ترشِيحِ المجازِ » قولٌ ينبو بِه البيانُ ، كما أنَّ كلمةَ « الخروجِ » المتكرّرةَ فِي كلّ حديثٍ تعنِي أنَّ هذه الآثامَ أجسامُ ، وأنّها تخرجُ من مَخارجها ، في الحديثِ ، تخرجُ مِن تحتِ الأشفار ، وتخرجُ مِنْ تحتِ الأظفارِ إلى آخره ، وهذا لا يصرفُ إلا إلى الحقيقةِ .

ولا تقلْ لِي إنّ قرينة الاسْتحالةِ توجبُ صَرفَه إلى « المجاز » ؛ لأنَّ قرينةَ الاستِحالةِ هذه تَكونُ فِي أفعالِ الْمخلوقين ، وفِي أحوالِهم ، كاسْتحالةِ أن ْترَى أسدًا علَى صَهوةِ جوادٍ ، أو بدرًا يُغنّي ، أمَّا أفعالُ الخَالقِ ، فلا يقالُ فِيها هذا ؛ لأنّها لا تخضَعُ للنّظامِ الّذِي نعرِفُه نحنُ ، وإنّما هِي هُناك مَعَ منظُمةِ الفعلِ الإلهيّ الّذي يَخضَعُ كلُّهُ لِكلمةِ (كُن) فيكون . . . . » [1]

قول الشيخ : « يصعُبُ عليّ أن أجدَ وجهًا للمجازِ مِنْ خروجِ خطايَا الرّجلِ مِن تحتِ الأظفارِ». « يَهديك إلى أَنّه لا يعمدُ إلى قولٍ إلاّ مِن بعدِ أن يجربّ الوجوه الأخر ، ويسبرها ويقيسَها ويوازن بيْنها ، وينتَهِي إلى ما هُو الأوفقُ الأوثق ، فيأخذُ بِه .

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ٢٢٧/١

يقِيمُ أمرَه على الصَّنعة ، والاختيارِ واستدراك الأعلى والأوفقِ ، لا على فَطير الرَّأي وخاطفِ الخاطر ، فهذا ليْس من شـأنِ أهـلِ العلـمِ وطلبتِـه ، ولا سـيّما العلمُ بكتابِ الله تعالى وسُنة رسُولِه صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ .

وفِي هذا مِن تربيتنا نحنُ طلاَّبَ العلم على الوفاءِ بحقِّ العلمِ أوَّلاً وبحقٍّ من يتلقّى مِنا ما نسوقُه إلى قلوبهم . فمَن هَدْي النُّبوّة أنَّ الله تعالىّ يُحبُّ إذا عَمِـلَ عبدٌ عَمَلاً أن يُتقنَهُ[1]

وفي قوله : «والقَولُ بأنّ هذا منْ «ترشِيحِ المجازِ» قولٌ ينبو بِه البيانُ» إعلامٌ بأنّ للبيان سلطانًا في حركة التلقّي والتأويل . والبيانُ هنا بيان عن فعلٍ إلهيّ ، وما كان كذلك ، كان هذا البيانُ موجبًا استحضار شأن صَاحبِ الفعلِ ، وتلقّي البيان على مـا يليق بجـلال صَاحب ما كـان البيـانُ عـنْه . ، فالمتلـقّي لا يصرّف التّأويل على وفقِ حالِه هو ، بلْ على وفقِ شأنِ صَاحب الفِعل الذي البيانُ عنه . فاستحضارُ جلالِ الإلهية وقدرتها ، صارفٌ عن القول بالمجاز ، وإذا ما كان استحضار الاستحالةِ العقليّة البشريّة صَارفا عن الحقيقة ، فحرى أن يكون الفصل لاستحضار جلالِ الإلهية وقدرته المطلقه سُبْحانَه وَبِحمدِه والذهاب إلى الحقيقةِ ، لا لاستحضار الاستحالة العقلية . وإلاَّ كان هذا من قبيل تقديم مقتَضى العقلِ البشريّ الّذي حليتُه النقصُ والعجز ، على مقتضَى شأن جلال الإلهية وكمالِها ، فمن فعل كان على سنن من قال الله سُبْحانَه وَتَعالَى فيهم : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴾ (النحل:٥٧)

---

(١) روى الطبراني في المعجم الأوسط عَنْ عَائِشَةَ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلا أَنْ يُتْقِنَهُ» وفي المعجم الكبير بسنده عن سيرين أخت سيدتنا مارية القبطية رَضِيَ اللهُ عَنهما

والبيهقي في شعب الإيمان من حديث أمنا عائشة رَضِيَ اللهُ عَنهما وصححه الألباني في السلسة الصحيحة ، (١١١٣) ، وحسنه في صَحيح الجامع الصغير (١٨٨٠).

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ ۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴾ (النحل:٦٢) (١)

* * *

وفي شرحه قولَ رسُول الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسلّمَ : « إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْخَلْقَ حَتَّى إِذَا فَرَغَ مِنْهُمْ قَامَتِ الرَّحِمُ فَقَالَتْ : هَذَا مَقَامُ الْعَائِذِ مِنَ الْقَطِيعَةِ . قَالَ : نَعَمْ ، أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ ، وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ ؟ قَالَتْ : بَلَى . قَالَ : فَذَاكَ لَكِ» ذكرَ أنَّ ممّن يؤخذُ عنه العلمُ ذاهبٌ إلى أنَّ الرَّحمَ قرابةٌ ونسبٌ ، وليست إنسانًا يقومُ ويستعيذُ ويخاطبُ ، وأنَّ كلّ ذلك تمثيلٌ وتصويرٌ [استعارة تمثيليّة] وأنَّ المعنَى والمغزى هُو بيانُ عظيمِ شأنِ الرّحمِ وعظيمِ الثَّوابِ في وصلِها ، وعظيمِ العقاب في قطعِها ، ومِن أولئك الأعيان القاضِي عياضٌ رحمه الله تعالى وتأييد النَّوويّ مقالَه .

ويلفتنا الشَّيخُ إلى أنّ المجازَ والتَّمثيلَ هنا ليس في آياتِ الذّات والصِّفات ، وأنَّه ممَّا يقلُّ التَّنازعُ فيه ، وكثيرٌ من أهلِ السّنة يقُولون بِه ما دام ليس في الذّاتِ والصِّفات

---

(١) ومن هدي القرآن ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ (الطلاق:٢،٣) ومن هدي النبوة : فيما رواه أحمد في مسنده بسنده عَنْ أَبِى قَتَادَةَ وَأَبِى الدَّهْمَاءِ قَالاَ كَانَا يُكْثِرَانِ السَّفَرَ نَحْوَ هَذَا الْبَيْتِ . قَالاَ أَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ فَقَالَ الْبَدَوِىُّ أَخَذَ بِيَدِى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَجَعَلَ يُعَلِّمُنِى مِمَّا عَلَّمَهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَقَالَ « إِنَّكَ لَنْ تَدَعَ شَيْئاً اتِّقَاءَ اللَّهِ جَلَّ وَعَزَّ إِلاَّ أَعْطَاكَ اللَّهُ خَيْراً مِنْهُ ».

فمن ترك الذهاب إلى التأويل المجازي إعلاءً لشأن الله سُبْحانَه وبِحمدِه على شأن العقل البشريّ في التأويل كان له من نعمة الفهم والتلقّي واستبصار دقيق المعاني وشريفها ، وأثرها في قلبِه ومسلكه ما لم يكن له لوأعلى شأن عقله . فالذهاب إلى الحقيقة فيمثل هذا أتقَى وأبرك عطاءً وأطيب غذاء وأنجع دواءً .

ثم يلتفتُ إلى الوجه الآخر قائلاً : « ولك أن تقُول : إنّ صرفَ هذا إلى التمثيلِ يجعلُ قوله سُبحانه وتَعالى للرّحمِ : « أصل مَن وصلك وأقطع من قطعك » من باب « التَّمثيل » الّذي يُرادُ بِه تعظِيمُ شأنِ الرّحمِ وتَعظيمُ أجرِ واصِلِها ، وتعظيم عقابِ قاطِعها ، وهذا شيءٌ يَضعفُ به المعنى ؛ لأنَّه لا شَكَّ أنّ المرادَ أنّ الله يصلُ واصلها ويقطع قاطعها حقيقةً ، وليست مجازًا »[1]

فهُو لمْ يَشأ أدبًا مَع الأعيانِ مِن العلماءِ أنْ يصرِفَ وجهك عن مقالهم ، ولم يشأ أن يقول لك إنّ هذا منهم جَرأة على اقتحامِ الغيبِ ، ولكنّه لفتك إلى أنّ الذي قالوه فيه إضعافٌ للمعنى ، أي إضعاف أثرِه في قلوبنا ، وكأنّه يقول لك هذا أقلّ ما فيه ، وإذا كان ثمرة مقالِهم إضعافًا للمعنى في صدورنا ، فإنّ الرَّغبة عنه أوفقُ ، كلّ ذلك في تلويحٍ لطيف ليعلّمنا أدبَ الحوارِ مع مَن نختلف في ما ذهب إليْه . وكذلك شأنُ العلماء وطلبة العلم .

ثمَّ لا يَدعُك ، بلْ يُبيّنُ لك قدرَ الذّهابِ بالكلامِ على الحقيقةِ ، ويعرضُ لك بعَضًا ، ثم يقُول : « صَرفُ كلّ ذلك إلى التَّمثيلِ يذهبُ بكثيرٍ مِن هذِه المعانِي الجليلةِ فِي هذا الحديثِ الذي هُوَ مِن عَطاءِ اللهِ لنا جميعًا . . . »

يُرشدُك إلى أنَّ القولَ بالتَّمثيلِ فِي مثلِ هذا مَخرجُهُ عدمُ المُحاجزةِ بيْن رُؤية خلقِ الرَّحم وخلقِ الأرضِ مثلا وأنّهما معًا ممّا لا يُخاطب دون التفاتٍ إلى أنَّ المخاطِب إنّما هو الله تعالى ، فخلقُهما : الرّحمِ والأرضِ خارق للعادة (عِند البَشرِ) وكذلك خطابُه سُبحانه وَتَعالَى لهما خارقٌ للعادة (عند البشر) فكلٌّ على الحقيقة لا التمثيل .

من قال بـ« التمثيل » فرَّق بين الفعلين : الخلقُ والمخاطبة من جهةٍ ، وقارب بين خطابه سُبحانه وَتَعالَى لهما وخطابنا لها ، فجعلهما معًا على التَّمثيل ، وهذه مقايسة مَع الفارق ، فالشَّيخُ لفتنا إلى مَخرج المُجاوزة ، وكأنَّه يبصّرنا كي نتعلمَ ، فلا نسلكُ مثل هذا المسلك . وهذا من صِناعة الرّجال . .

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ٦٦٣/٢، ٦٦٤ .

ويجهرُ لك بالذي هو فيه قائم : « ما دُمنا قَبِلْنَا أنَّ الله خلقَ السّمواتِ والأرض ، وقالَ لَهما ائتيا طوعًا أوْ كرهًا ، فقالتا أتينا طائعين ، وفلا بدّ أن نقبلَ أنّه قالَ ذلك على وجهِ الحقيقةِ ، وقالتْ له على وجه الحقيقةِ . . . . وحمل خطاب الخالقِ علَى خِطابِ الخلقِ أقُول هذا ليسَ بواجبٍ ؛ لأنّ أمرَ الله فِي خلقِه يتجاوزحُدودَ المألوف ؛ لأنّ الخالق نفسه مُتجاوز حدود المألوف ...

وهذا ممَّا لم أقرأه في كلامِ مَنْ يُؤخذ عنهم العلمُ ، فخذْ ما تراه ودع ما لا تراه ، ولا حرج عليْك ، وأرجو أن أكونَ أيضًا مِن الذين لا حرج عليهم »[1]

الشّيخُ يلفتك إلى مَخرجِ ما قام فيه : أبان لك أنّ منطقَ العدلِ والإنصافِ قاضٍ به : لا تجعل للعقل فيما هو خارجٌ عن مألوفِه سلطانا ، ولا تكلْ بمكيالين :

تجعلُ خلق الرَّحم والأرض . . . خارجًا عن سلطان العقل ، وتجعل خطابهما خاضعًا لسلطانِه ، دون أن يكونَ هنالك حاملٌ صحيحٌ على تلك التّفرقة . هذا مجاوزةٌ في منهجيّة التّفكير . الخللُ هنا خللٌ في المنهج الفكريِّ .

هو يقول لي إنّ الخلل في منهج التفكير لا يستوجبُ تفسيقَ من ابتلي به تفسيقًا عقديًّا ، وإن كان تفسيقًا منهجيًّا في التفكيرِ ، لأن الفسُوق العقديّ مخرجٌ من مِلّةِ الإسلام ، والفسوق المَنهجي تفكيرًا داخلٌ في الخطأ ، وكلُّ ابن آدم خطاءٌ وخيرُ الخطائينَ التّوابون ، فأقصَى ما يُمكن أن يُوسمَ به أنَّه أخطأ في اختيار السَّبيل الأوفق في تقديسِ الله سُبحانه وَتَعالَى ، وكذلك الفسوق السلوكي لايُخرجُ من الملَّة[2]

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ٦٦٤/٢، ٦٦٥ .

(٢) للفسوق ثلاثةُ أنواع :

« فسوقٌ عقديٌّ مُخرِجٌ من الملَّة وهوبِحمد الله تعالى قليل في المسْلمين . ==

ولذا تجد الشّيخ يقول : وحملُ خطاب الخالقِ على خِطابِ الخلق أقول ليس بواجب . . .

لم يقل إنّه خطأٌ أو ضلالٌ ، أو جائز بل قال : « ليس بِواجبٍ» ، فلفتني بهذا إلى أنّ الَّذي قال بِه لم يكن ثَم ما يَحمله عليْه ، وكان لمن سلكه مندوحةٌ عنه ، وهذا من عظيمِ إجلالِه لأهلِ العلمِ الّذين يقُولون ما لم يذهبْ هو إليْه ، وهذا مِن مسلكِه في تربيتنا ، كذلك نتعلَّم منه أعزَّه الله تعالى بطاعتِهِ .

* * *

وفي قراءته أعزه الله بطاعته قول رسول الله صَلَوات اللهِ وسلامُه عَلَيْه وعَلَى آلِهِ وصَحبِهِ : « ثَلاَثَةٌ لاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» . . . الحديث

من بعدِ أن أبان أن قوله صَلّى اللهُ وسلّم عَلَيْه وعَلَى آلِهِ وصَحبِهِ : « ثَلاَثَةٌ لاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ» منقول من كتاب الله سبحانه وتعالى في سياق عقابِ الذين يكتمون ما أنزلَ الله من الكتابِ ، ويشترون به ثمنا قليلا،وسيقت في بيانِ عِقابِ هؤلاءِ الّذينَ لا يزالون بيننا بقوله تعالى : ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ (البقرة:١٧٤) وفي آل عمران مثل ذلك في شأنِ الذين يشترونَ بِعهدِ اللهِ وأيمانهم ثَمناً قليلا : ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ**

== « فسوقٌ منهجيّ في التفكيرِ لا يُخرجُ من الملة ، ويُدخل صَاحبه في دائرة الخطأ ، وهو غير قليلٍ في من لا ينبتون من النابتة في العلم ، وغير قليلٍ في من يُوسَمون بالمفكر الإسلامي »

« فسوق سلوكيٌّ أخلاقيّ لا يُخرج من الملة ، ويدخل صَاحبه في الخطيئة وهو الكثير في الناسِ ».

﴿وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (آل عمران:٧٧)

وكَأن الشَّيْخ يلفتنا إلى أن نتصور فداحة الذنب الذي جاء البيان عن عقابه في الحديثِ بمناظرته بالذَّنب الذي جاء العقاب نفسه عنه في البيان القرآني .

لأنَّ هذه الجمل التي صورت عقوبة الآثام المذكورة في بيان النُّبوّة لم تفرغ من شُحنةِ الغضبِ الّتي أفرغها فيها سياقُ سورة البقرة ، وآل عمران «لأنَّ المفرداتِ لا تَعرُو أبدًا مِن أحوالِ السياقِ الذي جَرتْ فيه ، وكذلك الجمل»[١]

وفي هذا لفتٌ إلى أهميّةِ استصحابِ سياقاتِ استعمالِ الكَلمِ والجُملِ والصُّورِ ، ولا سيَّما في بيان الوَحي ، فهذِه السّياقاتُ تَمنحُ الكلمَ والجُملَ والصّورَ معانِيَ تمتزجُ بموضوعاتها الرّئيسة ، فتتلّون هذا المعاني الأصليّة بالمعاني الاستعماليّة .

وهذا يفهمُ منه أنَّ كثرة استعمال الكلم وتنوّع مساقَاتِ الاستعمالِ يمنحُها ثراءً وقوَّة ، ممَّا يجعلُ نُدرة الاستعمال عاملاً مِن عواملِ ضيقِ دائرة المعنَى[٢]

وهذا يهدِي إلى أنّ الاتساع الّذي هو حِلية البيان العالي مِن رَوافدِه كثرة استعمال الكلم والجمل والصور ، فهذا الاستعمالُ حين يكونُ من الأعيانِ لا يُصيبُ الكَلمَ والجُملَ والصُّورَ بداءِ الابتذالِ .

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ١/٧١ .

(٢) من حقّ الكلم النوادر على أهل العلم وطلبته أن يصطفوا منه ما ليس بِحوشيّ ، فيجرونه في آذان الناس في سياقات كاشفة ، ولو بقرنه أولاً بما يهدِي إلى معناه ليستحيل مأنوسًا ، ثم إذا ما كثر جريانه في الألسنة ونفاذه في الآذان أفرد بالاستعمال فإحياءُ البيان وسيلة من وسائل إحياء الفهم . واتساعه وفتوته . فإحياء الموات في باب العلم وأدواته لا يقل أهمية عن إحياء موات الأرض استزراعًا .

ولعله مما ينفعُ في هذا إدمان النظر في معاجم اللغة ، نظرًا فاقها مستوعبا ، وكذلك مخادنة مثل كتاب« الألفاظ الكتابية» ، لعبد الرحمن الهمزاني .

الابتذالُ يأتي مِن كثرةِ استعمالِ الدَّهماءِ ؛ لأنَّهم لا يستعملون الكَلِمَ والجُملَ والصُّورَ في كلِّ مرّة اسْتعمالاً متجدِّدًا ومجدِّدًا ، بل هُو إلى التّكرارِ العقيمِ أقربُ .

وبعدَ أن نصَّ شيخنا على أنَّ قوله (لا ينظرُ إليهم) لا بدّ مِن مُراعاةِ التَّقاربِ فِي المعنى بيْن قوله : (لا يُكلمهم الله) وقوله : (لا ينظُرُ إليهم) وفرغَ من الإشارةِ إلى ما بينهما من مراعاة النَّظير ، وحثَّنا على أنْ نبسطَ النَّظرَ في هذا الأسلوبِ ، ونخرجَه من دائرةِ الألفاظ إلى دائرة المعاني والأغراض ، من بعدِ ذلك انتقل إلى مقابل نفي نظر الله تعالى إلى أُولئك الثلاثة ، وهو نظر عبادِه إليه ، فذهب إلى أنّه « لا شكَّ أنَّنا نَنظُرُ إليْه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في كلّ حالٍ ، وقد وصف ربنا أهل محبته بأن وجوههم ناضرة (إلى ربّها ناظرة) ونظرنا إلى ربنا ليس كنظرِ بعضنا إلى بعض ، وإنّما ننظر إلى لطفه وإحسانه ومنّهِ وفرجِه وعطائهِ ، وكما أكرمنا ، ولطفَ بنا ، ونظرَ إلينا فِي الدّنيا نَنْتَظِرُ لطفه وكرمَه ومنّه علينا يوم العرضِ . . . .

وقال العلماءُ في بيانِ قوله عليْه السلام (ولا ينظرُ إليهم) المرادُ منعُ الإلطافِ والعفو والإحسانِ[1]

وهذا فيه نظران :

الأول : أن قوله : « وقال العلماء .... إلخ لو جعله قبل قوله : « وهذا ممَّا يُسميه علماء البلاغة مراعاة النظير . . . » لكان آنس بما قبله .

والآخر : أنَّ قوله : لا شكَّ أنَّنا نَنظُرُ إليْه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في كلّ حالٍ ، وقد وصف ربنا أهل محبته بأن وجوههم ناضرة (إلى ربّها ناظرة) . . . « يفهم مِن قوله (ننظرُ إليْه في كل حالٍ) أنّه يلتفتُ إلى نظرِ العبادِ إلى الله تعالى في الدنيا

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ٧١/١

وفي الآخرة ... ولكن الإتيان بقوله : « وقد وصف ربنا أهل محبته ... » قد يحملنا إلى أن نفهم منه أنّ الآية في نظر أهل محبته إلى ربهم سبحانه وتعالى في الدُّنيا بقرينة قوله : « وإنّما نَنظُرُ إلى لطفه ... » والآية التي ذكرها إنّما هي نصٌّ في يوم القيامة ، وأنّ هذا لأهل الجنَّة في الجنة .

ولوأنَّ شيخنا الجليلِ قدرُه وعلمُه وبيانُه قال : ولا شَكّ أنّنا نَنظرُ إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الدُّنيا والآخرة ، ونظرُنا إلى ربِّنا سُبْحانَه وَتَعالَى في الدُّنيا ليس كنظرِ بعضِنا إلى بعض ، وإنما ننظرُ إلى لطفه . . . وكما أكرمنا ولطف بنا وَنظرَ إلينا فِي الدّنيا ننظرَ إلى لطفه وننتظر كرمَه ومنِّه علينا يوم العرضِ . .

لو صيغت العبارة على هذا النّحو لكانت أعون للقراء على حُسن الفهم ، ولعلموا أنّ الشيخ أعزه الله تعالى يقرن بين نَظريْن لأهل الإسلامِ إلى ربهم سُبْحانَه وَتَعالَى :

نظر في الدّنيا ، ونظرٌ يومَ العرضِ من قبلِ دخولِ الجنةِ وفسره بانتظار ألطافه ، وهذا الانتظارُ في الدنيا من كمال العبودِية ، ويوم العرض من كمال الرَّجاءِ فِي رحمانيتِه ورحمتِه .

ونظر في الجنة قرّرته آيات سورة «القيامة». وهو نظرٌ على الحقيقةِ . نعلم الآن معناه ، ونجهلُ كيفيته إلى أنْ يكون لنا في الجَنَّة . إنْ شَاء الله تعالى .

أمَّا ما جاء عليه بيانُ شيخنا فأخشَى أنه يتوهَّمَ أنّ الشَّيخ يذهب إلى أنّه يفسر قول الله تعالى : ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ (القيامة:٢٣) بأنَّها تنتظر منه ثوابه بدلالة قوله : « وكما أكرمنا ولطف بنا ونظر إلينا في الدّنيا ننتظر لطفه وكرمه ومَنّه علينا يوم العرضِ يومَ الآزفة ... » فهذا يحملُ على أَن يُفهم أنَّ قوله تعالى ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ تأويلها عند الشيخ إلى ربّها منتظرة لطفه وكرمَه يوم القيامة .

نعم هذا الوجه من التأويل نسبه الطّبري إلى «مجاهد» يقُول الطبري : حدثنا أبو كُرَيب ، قال : ثنا عمر بن عبيد ، عن منصور ، عن مجاهد ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ (القيامة:٢٢،٢٣) قال : تنتظر منه الثواب .....

عن منصور ، عن مجاهد ، قال : كان أناس يقولون في حديث : «فيرون ربهم» فقلت لمجاهد : إن ناسا يقولون : إنّه يُرَى ، قال : يَرَى ولا يَراهُ شَيْءٌ[١].

والذي في تفسير مجاهد مخالفٌ لذلك الذي نسبه إلَيْه الطبريّ قال مجاهدٌ في تفسيره : «أنا عَبْدُ الرَّحْمَنِ ، قَالَ : ثنا إِبْرَاهِيمُ ، قَالَ : ثنا آدَمُ ، قَالَ : ثنا الْمُبَارَكُ بْنُ فَضَالَةَ ، عَنِ الْحَسَنِ ، فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴾ (القيامة:٢٢) قَالَ : «حَسَنَةٌ» ، ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ (القيامة:٢٣) قَالَ : «تَنْظُرُ إِلَى رَبِّهَا حَسَّنَهَا اللَّهُ بِالنَّظَرِ إِلَيْهِ ، وَحَقَّ لَهَا أَنْ تَنْضُرَ ، وَهِيَ تَنْظُرُ إِلَى رَبِّهَا عَزَّ وَجَلَّ»[٢]

وتأويل ناظرة بمنتظرة قال به جمع من غيرِ أهلِ السّنّة[٣]

---

(١) جامع البيان في تأويل القرآن . تأليف أبي جعفر الطبري : محمد بن جرير بن يزيد الطبري (ت : ٣١٠هـ) تحقيق : أحمد محمد شاكر . نشر : مؤسسة الرسالة . الطبعة الأولى ، ١٤٢٠ هـ . ٧٢/٢٤، ٧٣ .

وانظر معه الرد على الجهمية . تأليف ابن منده : محمد بن إسْحاق بن محمد ابن يَحيى بن منده (ت : ٣٩٥) تحقيق : علي الفقيهي . ط(٣) عام ١٤١٤هـ نشر : مكتبة الغرباء الأثرية . المدينة المنورة . ص١٠١-١٠٣

(٢) تفسير مجاهد . تأليف : أبي الحجاج مجاهد بن جبر المخزومي (ت : ١٠٤هـ) تحقيق : محمد عبد السلام أبو النيل . نشر : دار الفكر الإسلامي الحديثة ، القاهرة . الطبعة الأولى ، ١٤١٠ هـ . ص ٦٨٧ .

(٣) ينظر : شَرح الأصُول الخمسة للقاضي عبد الجبار بن أحمد بن الخليل الهمذاني (ت :٤١٥هـ) تحقيق عبد الكريم عثمان . نشر مكتبة وهبة عام ٢٠٠٩م . ص ٢٤٥ ==

وقد دفعه أهل العلم ، وليس عليه جمهرةُ المحققين[1]

واليقينُ المُستمدُّ من شواهدَ فتيةٍ أنَّ الشَّيخ لا يذهبُ إلى نفي رؤية أهلِ الجنَّة ربّهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، ففي ما كتب وما سمعنا منه في محاضراته ومجالسه العلمية ما يقطع بذلك ، لذا كان الأعلى عندي أن تحرّر العبارة في هذا حتى لا يَفهم الذين لم تكن لهم صُحبةٌ مديدةٌ بالشَّيخِ وكتبِه ومجالسِه العلميّةِ غير ما عليْه مذهبُ الشّيخِ من اليقين بأنّ أهلَ الجنة يرون ربّهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، وأنّ هذه الرُّؤيةَ هي أجلّ نعمةٍ يُنعم بِها الله تعالى على عبادِه في الجنة ، وبها كمالُ نعمةِ الله تعالى عليهم ، وبهذا يفهم وجه البيان بقوله تعالى :

== وتنزيه القرآن عن المطاعن . تأليف : القاضى عبد الجبار بن أحمد الهمذاني (ت : ٤١٥هـ) نشر : الناشر : دار النهضة الحديثة القاهرة : ص٤٤٠

والوجوه والنظائر تأليف أبي هلال العسكري : الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري (ت : : نحو ٣٩٥هـ) تحقيق : محمد عثمان . نشر : مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة . الطبعة الأولى عام : ١٤٢٨ هـ . ص٤٨١

معانى القرآن . تأليف : أبي الحسن الأخفش الأوسط (ت : ٢١٥هـ)تحقيق : هدى محمود قراعة . نشر : مكتبة الخانجي ، القاهرة . الطبعة الأولى ، ١٤١١هـ . ٥٥٨/٢.

(١) الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد على مذهب السلف وأصحاب الحديث . تأليف : أبو بكر البيهقي : أحمد بن الحسين بن علي بن موسى البيهقي (ت:٤٥٨هـ) تحقيق : أحمد بن إبراهيم أبو العينين علق عليه : عبد الرزاق عفيفي . قدم له : عبد الرحمن ابن صالح المحمود . نشر : دار الهدي النبوي (المنصورة) ـ دار الفضيلة (الرياض) الطبعة الثانية ، ١٤٢٧ هـ . ص١٢٣-١٣٨

ونهاية الإقدام في علم الكلام . تأليف أبي الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني (ت : ٤٨٥هـ) تحقيق : أحمد فريد المزيدي . نشر : دار الكتب العلمية ـ بيروت . الطبعة الأولى عام : ١٤٢٥ هـ ، ص٢٠٧

ومختصر الصواعق المرسلة على الجهمية المعطلة . تأليف : ابن قيم الجوزية (ت:٧٥١هـ) تحقيق : رضوان جامع رضوان نشر : دار الفكر ـ بيروت . طبع عام ١٤١٨ هـ . ص ٤٥، ٩٩، ١٠٠ .

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ (المائدة:٣) فجاء بالكمالِ في الدّين والتّمامِ في النّعمة ، الكامل لا يقبلُ الزيادة بأيِّ وجهٍ ، والتّمَامُ يقبلها بوجهٍ ، ونعمتُه جلَّ جلالُه لن تكملَ عليهم إلا بالتفضّل عليهم برؤيتِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

* * *

ويؤكد الشّيخُ أنّ امتطاءَ صَهْوةِ العقلِ في كلِّ خبرٍ مِن الوَحيِ ليس مآله السّلامةَ وبلوغَ المَأمَنِ ، بَلْ الأخذُ في سياقاتِ التّسليمِ وتركِ التّأويل في كيفياتِ الأخبارِ الّتي أنبأ بها الوحيُ هُو المَهيعُ الآمنُ ؛ لأنّ قدرةَ العقلِ من دون كثير ممّا جاء به النبأُ العظيمُ ، وليْسُ كلُّ ما يُنبّأُ به العقلُ ليُؤوّلَه ، بل ينبّئُ به لِذوق نعمةَ التسليم والوقوفِ عند طاقتِه في الإدراك ، فهذا عنوان العُبوديّة لله تعالى .

يتلقّى الشيخُ ما أنبأ به البيانُ النّبَويّ « إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللَّهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِى حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا». فيقرّرُ أنَّ الواقِعَ الّذي نعيشُهُ لَمْ نَعرف فِيهِ منابِرَ مِنْ نُورٍ ؛ لأنَّ النُّورَ مَهما زادَ ، وجاءَ نور علَى نورٌ لا يَكونُ منبرًا يَرقَى عليْهِ أحدٌ .

وإذا أخذنا بِظاهرِ الحديثِ ، وهو الأَوْلَى قُلنا : إنَّ الغائبَ الّذي هو شَأنُ الآخرةِ لا يُقاسُ علَى الشّاهدِ الذِي أَلفناه فِي الدُّنيا .

ولك أنْ تَقُولَ : إنَّ هذا مِن المَجازِ ، والمقصُودُ ليسَ ظاهرَ اللّفظِ ، وإنّما المقصُودُ المنزلةُ الرَّفيعةُ والمقامُ المحمودُ لِهؤلاءِ المُقسِطين ....

وفهمُ المَجازِ هنا يَحتاجُ إلى فِطنةٍ ؛ لأنَّ الّذِي ذُكر فِي الكلامِ الشّريفِ هُو هَيئة منابر النّورِ والمقسطونَ عليْها . والمقصودُ هو بيان أنّ لَهمْ عندَ الله منزلة رفيعة . وهذا يَعنِي أنَّ للهيئةِ المذكورة المكوّنة مِن منابر النّورِ ، والمُقسِطون عليْها هيئةً مُصورةً للمنزلةِ الرَّفيعة . ووجه الشَّبهِ هوالظهورُ السَّاطعُ والبيانُ القاطعُ عن هذه المنزلةِ .

ولك أنْ تلجَأَ إلى الكنايةِ التِي لا تستوجبُ تشبيهًا ، وتكتفِي بدلالات اللزومِ ؛ لأنّه يلزمُ من منابر النّور علو المنزلة وبليغ الإكرام . . .

وقوله عَليهِ السّلامُ : «عَنْ يَمينِ الرّحمنِ عزّ وجل» كلمة «يَمين الرّحمن» مثل كلمة «وكلتا يديْهِ يمين»... ويذكر العلماءُ معها دائمًا قَولَهُ تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ (الشورى:١١) ، وأنّه سبحانه منزّهٌ عَن مشابهةِ الحوادثِ ، وأنّه سبحانه ليس له يدٌ كأيدينا ، وليس له وجهٌ كوجوهِنا ، ولا يمينٌ كَيمينِنا إلى آخرِه .

وهذا لا خلاف فيه ، ليس لأنّهُ إجماعٌ ، وإنّما لأنّه صَريح آية : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ (الشورى:١١) [1] ثُم يأتي الخِلافُ بعد ذلك ، وهوعلى وجهين :

وجهٌ يقولُ نُؤمن بِه ، كما جاء ، ونعتقد نفي الشّبه والمثل ، ثُم نفوّضُ المراد بِه إلى الله ، ولا نحاول أن نؤول ، ونقول المراد باليد كذا ، والمراد بالوجهِ كذا ؛ لأنّ هذا التأويل حديثٌ عن اللهِ ، وليس لدينا الدليلُ القاطعُ على صِحتِه ، والسّلامة فِي أن ننفِي الدّلالة الظاهرة ، ونفوض علم المراد بها إليه . وهذا مذهبُ السلف ، وهو أسلمُ ، وقال بِه كثيرٌ من المتأخرين وكثيرٌ من المتكلمين .

وَوَجهٌ آخرُ قال بِه كثيرٌ مِن كِرامِ عُلماءِ الأمّةِ رضوانُ الله عليْهم ، وهو أن نؤوّل فِي ضَوءِ استعمالِ اللسان العربيّ الذي خاطبنا الله به ، وفيه المجازُ ، وفيه الحقيقةُ ، فاليمينُ فِي كلامِ العربِ يأتي ولا يرادُ بِه الجارحة ، وإنما يُرادُ بِه

---

(١) يشير الشَّيْخ إلى أنّ هذه الحقيقة ليس مأخذها من جهة إجماع العلماء ، بل من جهة نصّية الخطاب القرآني المحكم الذي لا يقبل التخصيص أو التأويل أو النسخ ، فقوله تعالى ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ (الشورى:١١) خبرٌ مُحكَم بمصطلح الأصوليين لا يقبل هذه الثلاثة : التَّخصيص والتَّأويل والنَّسخ . وهذا يحقِّق له الثلاثة الأصول : حُسن الدلالة وتمامها وإحكامها (تبرجها).

العنايةُ والاهتمام . . . . ومثلُ هذا كثيرٌ في مجازات اللغة ، ويرون أنّ هذا أوْلَى مِن القولِ بأنّ لها مَعنًى يليقُ بِه سُبْحانه ، وهُو أعلمُ بِهذا المعنى كما يقُول السلفُ ، وهوحقٌّ .

واجتهدَ الخلفُ فِي أنْ يتعرّفوا على المعنى الذي يليقُ بِه سُبْحانه فِي ضَوءِ العلمِ باللغةِ وطرائقِ دلالتها ، وهذا حقٌّ أيضًا »[1].

* * *

ويمضي الشيخُ مقررًا أن هذا قال به كرام من علماء الأمة ، وأن لك أن تأخذ بأيّ المذهبين من بعد أن تتبصر ، لا تقليدًا أعمى ، على أن تحمي لسانك مِن الطَّعن في أيّ من الطائفتين ، ثم يقول : « أمَّا أنا فقد بقيتُ زمانًا فِي أوّلِ اشتغالِي بهذا العلمِ أقولُ بما قال بِه الخلفُ ، وأصرفُ الكلامَ عن الحقيقةِ إلى المجازِ فِي هذه الآياتِ ، وأغرانِي بهذا قولُ بعضِ الخلفِ أنهم بادروا إلى التأويلِ حتّى لا تعرض خَطراتُ التَّشبيهِ إلى نفوسِ الجهال .

وأنا الآن أكفُّ يدِي عن التأويلِ ، وأفوضُ العلمَ بالمرادِ إلى اللهِ ، واستقرّ في نفسِي أنّه ممَّا لا يعلمُ تأويله إلا الله ، ولا أخطّئُ من أوّلَ ؛ لأنّ يقيني أنّه مجتهدٌ فِي التنزيهِ واللغةُ تساعده ، ورحمةُ الله أوسعُ مِن أن تضيقَ بِهم ، وهمْ جَميعًا مِن أهلِ العلمِ ، وأهل التّقوَى ، وأهلِ النّظرِ فِي كلامِ الله ، وكلامِ رسُولِه ﷺ »[2].

* * *

بسطت لك نقل مقالة شيْخنا لتكون بيْن يديك ، لعظيم أهميّة القول في هذا فتبصر الحقّ بنفسِك .

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ١/٤٢٠، ٤٢١

(٢) المرجع السابق : ١/٤٢١، ٤٢٢

وثَم نَظرات :

الأولى : قول الشّيخ : « وإذا أخذنا بِظاهرِ الحديثِ ، وهو الأَوْلَى قُلنا : إنَّ الغائبَ الّذي هو شَأنُ الآخرةِ لا يُقاسُ علَى الشّاهدِ الذِي أَلفناه فِي الدُّنيا .

ولك أنْ تَقُولَ : إنَّ هذا مِن المَجازِ ، والمقصُودُ ليسَ ظاهرَ اللّفظِ ، وإنّما المقصُودُ المنزِلةُ الرَّفيعةُ والمقامُ المحمودُ لِهؤلاءِ المُقسِطين . . . . »

بدأ بما هو الأَوْلَى في هذا المقام كأنّه يريدُه أن يأتيَ إلى قلبِك وهو خلاءٌ ، فيتمدَّد فيه ؛ لأنّه أمرٌ في باب العقيدة انتهى إليْه مِن بعدِ طُولِ سفرٍ في أودية العلم وبطحانه وتلالِه وشواهقه ، ومن بعد أن حط رحاله ومد أطناب خيامِه في غبْراء ما ليس هو الأولى عقودًا ، فأفضى به التَّبصُّرُ والتّدبرُ والمراجعة إلى الذي قال عنه إنَّه الأولى . أي الذي تحقق أنّه الأولى .

ومن أدب الشَّيخ مع أهل العلم لم يقل وهو « الحقّ » حتى لا يحاجزك محاجزة تامًّا عن أن تسمع غيره إن كنت ممنْ لا يرى في نفسِه اقتدارًا على أن يسمع ما ليس هنالك ، فيدفعه .

قال « الأوْلى » وكأنّه يشيرُ إليك أن تنظرَ بنفسِك فيما ذهبَ هو إلى أنَّه ليس الأوْلَى لعلك ترى غير الذي رأى « يَا نِسَاءَ الْمُسْلِمَاتِ لاَ تَحْقِرَنَّ جَارَةٌ لِجَارَتِهَا ، وَلَوْ فِرْسِنَ شَاةٍ » . (متفق عليه)

أرأيت إلى حرصِه على أن لا يقيمَك مقامَ التقليد ، الذي يأخذ النّاس من آذانهم إلى ما يريدونه منهم وبهم .

والثانية : قوله « ولك أن تلجأ إلى الكناية » من بعد أن قال : « لك أن تقول إنَّ هذا من المجاز . . . »

اصطفاء كلمة (تلجأ) هنا فيه إشارة إلى أن الأخذ بالقول بالكناية أقوى وأسلمُ من القول بالمجاز ، لاستغناء القول بالكناية عن ركوب متن التشبيه ،

ولو أنّ الشَّيْخ لم يقل : « وتكتفي بدلالة اللزوم » لكان عندي الأعلى ، لأن الكناية إذا اكتفي فيها بدلالة اللازم كانت ألصق بالمجاز ، بينما الكناية تفارقُ المجاز من وجهين :

الأول : أنّ الملزوم واللازم فيها لايتعاندان قصدًا .

والآخر : أنَّ الكناية أبعد عن التشبيه .

فالكنايةُ في حقيقتها لا تمنع الجمع بيْن المعنى الملزوم واللازم . وكأنَّ المعنى اللازم هو مآل المعنى الملزوم الّذي لاينكرُ ولا يدفع ، فأنت تقول بحقيقة أنّهم على منابرمن نور ، وأنّ هذا حقيقة تقوم يوم القيامةِ لا يتوقفُ فيها ، وأنّ هذا إنّما هو آية على علو منزلتهم وجليل إكرامهم . فالملزومُ واللازمُ على درجةٍ سواءٍ مِن القصدِ والإرادةِ .

والقولُ بأنَّه مِن بابِ المَجاز على مذهبِ مَن يذهبُ إلى صِحةِ الجمع بين المعنيين : الملزوم واللازم في باب المجاز على درجة سواءٍ مذهب قريبٌ ، وغير قليلٍ من أهلِ العلم يقول بالجمع بيْن الحقيقة والمجاز في كلام واحد وسياقٍ واحدٍ ، وشيخنا مِمّن يقول بذلك في بعض السياقات ولا يمنع من ذلك ، بل يراه هو الأعلى في بعضِ السياقات ، وقد ظهر ذلك منه في أكثر من سفرٍ من أسفارِه[1] .

والثالثة : قوله : « ليس له يد كأيدينا . . . . »

لوأنه أعزه الله تعالى قال : ليْست يده كأيدينا ، لكان ذلك أعربُ عن مرادِهِ ، وما عبر به ـ أحسن الله تعالى إليْه بإحسانه إلينا ـ مناط النفي فيه ليس كلمة

---

(١) كنتُ قد نشرتُ في طلابِ العلم بحثًا في تحقيق القول في مشكلة الجمع بيْن الحقيقةِ والمجاز في البيان القرآنيّ ، وناقشتُ أدلة كلّ مذهبٍ ، ونظرت في مواطن عدة من البيان القرآنيّ قيل فيها بهذا الجمع ، وقررت وقربت ما رأيته الأعلى ، وهو صحة هذا الجمعِ في بعضِ المساقات .

(يد) بل (كاف التشبيه) أي له يد ، ولكنها ليست كمثل أيدينا. فهو نفي للكيفية، وليس لإثبات اليد له سبحانه وتعالى . . فالشيخ يُثبت لله تعالى يداً ليْسَتْ كأيدينا .

والرابعة : قوله : « أمَّا أنا فقد بقيتُ زمانًا فِي أوّلِ اشتغالِي بهذا العلمِ أقولُ بما قال بِه الخلفُ ، وأصرفُ الكلامَ عن الحقيقةِ إلى المجازِ فِي هذه الآياتِ ، وأغرانِي بهذا قولُ بعضِ الخلفِ أنهم بادروا إلى التأويلِ حتّى لا تعرض خَطراتُ التَّشبيهِ إلى نفوسِ الجهال »

يشيرُ فيه الشَّيْخ إلى أنَّ الحاملَ لمن ذهبَ إلى التّأويل هو الرَّغبة في مزيدٍ من التقديس ، وتوهّم أن تركَ التَّأويل فيه شائبة تشبيه ، ففروا مِن شيْءٍ ووقعوا في آخر ، فكان صَنيعُهم خطأً في المنهج لا في المُعتقد .

وجاءهم الخطأُ من قبل الغفلة عن أنَّ السلف لم يروا في ترك التّأويل شبهة التشبيه ، وهم أنفذ بصيرة ، وأسبغ رؤية ، فكان الاقتداء بهم على بصيرة هو الأعلى والأولَى . فاجتهاد الخلفِ في هذا لم يكن قويمًا .

وكأنّي بالشّيخ يريدُ أن يؤدبني بأن لا أتجاوزَ في وَسْم المذهب الذي أرغبُ عنه من المذهبين ، فأذهبُ إلى تفسيق صاحبه ، فَعدلُ القضاء أن لا أتجاوزَ نعته بالخطأ في المسلك إلى تحقيق نبيل الغاية وزكيّ المقصد .

وفرقٌ جدٌّ ظاهر بيْن من يسلك مسلكًا غير قويم من بعدِ أن يسْتفرغَ جهدَه وهو يريدُ بلوغ الحق من خلالِه فلا يهدَى إلى حاق الحقّ ، وآخر يسلكه غيرَ مستفرغٍ جهده أو يسْلكه وهو يريد الباطل .

الأول واقع في الخطأ ، والآخران واقعان في الخطيئة .

الأول يُعذَرُ ويعلّم ، والآخران يُعزّران ويؤثّمان ، وينفّرُ منْ مسلكِهما .

والخامسة : قوله : « أنا الآن أكفُّ يدِي عن التأويلِ ، وأفوضُ العلمَ بالمرادِ

إلى اللهِ ، واستقرّ في نفسِي أنّه ممَّا لا يعلمُ تأويله إلا الله ، ولا أخطّئُ من أوّلَ ؛ لأنّ يقيني أنّه مجتهدٌ فِي التنزيهِ واللغةُ تساعده»

- قوله : « وأفوضُ العلمَ بالمرادِ إلى اللهِ»
- قوله : « واستقرّ في نفسِي أنّه ممَّا لا يعلمُ تأويله إلا الله
- قوله : « ولا أخطّئُ من أوّلَ»

كلٌّ فيه نظر :

أمّا أنَّه لا يُخطئ من أوّل ، فَإنّي أرَى أن الأعلى أن يقال : « لا أكفرُ أو أفسّقُ من أوّل» لأن الحكم بخطأ من أوّل هو الحكم العدل .

التأويل بمدلوله الاصطلاحي عن أصوليي العقيدة والشريعة هو «صَرْفُ اللَّفْظِ عَنْ ظَاهِرِهِ الَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ ظَاهِرُهُ إِلَى مَا يُخَالِفُ ذَلِكَ لِدَلِيلِ مُنْفَصِلٍ يُوجِبُ ذَلِكَ»[1] لا ريب فِي أنّ الذهاب إليْه في باب أسماءِ الله سُبْحانَه وَتَعالَى وصِفاتِه وأفعالهِ ونفِي أنباء الغيبِ إنما هو خطأ محضٌ .

وأمّا قول الشّيخِ : « واستقرّ في نفسِي أنّه ممَّا لا يعلمُ تأويله إلا الله»

---

(١) مجموع الفتاوى . تأليف : ابن تيمية : تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني (ت : ٧٢٨هـ) جمع عبد الرحمن بن محمد بن قاسم . نشر : مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف ، المدينة النبوية . عام : ١٤١٦هـ . ٦٩/٤

أوْ شرح العقيدة الطحاوية . تأليف صدر الدين بن أبي العز : محمد بن علاء الدين عليّ بن محمد بن أبي العز الحنفي (ت : ٧٩٢هـ) تحقيق : أحمد محمد شاكر . ط(١) عام ١٤١٨هـ . نشر : وزارة الشؤون الإسلامية ، والأوقاف والدعوة والإرشاد السعودية بالرياض . ص : ١٨٢

أوْ الحاوي للفتاوي . تأليف الجلال السيوطي : عبد الرحمن بن أبي بكر ، (ت:٩١١هـ) نشر : دار الفكر للطباعة والنشر ، بيروت ـ عام : ١٤٢٤ هـ . ٢٠١/٢

فتأويله الذي لا يعلمه إلا الله ليس هو معناه وإنّما حقيقة معناه ، وكيفيته ، فحقيقة مدلول أسمائه وصِفاته وأنباءِ الغيب لا يعلمها إلا الله سُبْحانَه وَتَعالَى .

يقول ابن تيمية : « وَأَمَّا حَقِيقَةُ مَا دَلَّ عَلَيْهِ ذَلِكَ مِنْ حَقَائِقِ الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ وَمَا لَهُ مِنْ الْجُنُودِ الَّذِينَ يَسْتَعْمِلُهُمْ فِي أَفْعَالِهِ فَلا يَعْلَمُهُمْ إلا هُوَ ﴿ **وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ** ﴾ (المدثر:٣١) وَهَذَا مِنْ تَأْوِيلِ الْمُتَشَابِهِ الَّذِي لا يَعْلَمُهُ إلا اللَّهُ....

وَاَللَّهُ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ لا يُعْلِمُ عِبَادَهُ الْحَقَائِقَ الَّتِي أَخْبَرَ عَنْهَا مِنْ صِفَاتِهِ وَصِفَاتِ الْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يَعْلَمُونَ حَقَائِقَ مَا أَرَادَ بِخَلْقِهِ وَأَمْرِهِ مِنْ الْحِكْمَةِ وَلا حَقَائِقَ مَا صَدَرَتْ عَنْهُ مِنْ الْمَشِيئَةِ وَالْقُدْرَةِ . . » [1]

فإن أراد شيخُنا أنَّه لا يعلم حقيقة المعنى ومآلَه إلا الله فحقّ لايدفع ، وإن أراد أن المعنى الذي يتلقاه العقل من النّبأ عن أسماءِ الله سبحَانه وتعالى وصِفاته وأفعاله لا يُعقل ، ولا يدركه العقل ، فذلك ما نتوقف في التسليم به ، لأنّ الله سُبْحانَه وَبِحمدِه إنما خاطبنا لنعقل ونفهم .

وأمَّا قول شيخنا : « وأُفوضُ العلمَ بالمرادِ إلى اللهِ » فإن القول بالتفويض مما أحتاج إلى بسط القول فيه .

جاء في مواضع من الكتاب أن السّلف يقولُون بالتفويض في أسماء الله تعالى وصفاته ، وأنهم يؤمنون به كما جاء ، ويعتقدون نفي الشّبه والمثل ، ثُم نفوّضُ المراد به إلى الله »

وهذا يحسُن بِي أن أبدي ما أذهب إليه في هذه القضية : قضية تفويض السَّلف في الأسماء والصفات ، وما كان من أمرِ الغيبِ المطلق .

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية . (م . س) ٣/٦٥، ٦٦

أو : الرسالة التدمريّة في تحقيق الإثبات لأسماء الله وصِفاتِه وبيانِ حقيقةِ الجمعِ بيْن الشرعِ والقدر، تأليف ابن تيمية. ط(٣) المطبعة السلفية. القاهرة عام ١٤٠٠هـ. ص٣٤

«التفويض» هو المقابلُ للتأويل . وهو قد يقع في «المعنى» وقد يقـع في «الكيف» فهل قال بالتفويضِ أئمـةُ السّـلف مـن القـرون الثلاثـة الأُول ، ومـن تبعهم مِن أعيانِ الأئمةِ مِن أهل العلم . ؟

وهـل جعلـوا مناطـه المعنـى والكيـفِ معًـا أو جعلـوا مناطَـه الكيـف دون المعنى؟

ذلك ما يَتعيّن أنْ أسعى إلى تحقيقه وتَقريبه ، والله المستعان على طاعتِه .

التفويضُ معناه التَّسليم وترك المنازعةِ . يقال : «فَوَّضَ إليـه الأَمـرَ : صَيَّرَه إليه وجعَلَه الْحَاكِمُ فِيهِ . وَفِي حَدِيثِ الدُّعَاءِ عنـد النـوم : «قُـلِ اللَّهُـمَّ أَسْـلَمْتُ وَجْهِى إِلَيْكَ ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِى إِلَيْكَ ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِى إِلَيْكَ ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ ، لاَ مَلْجَأَ وَلاَ مَنْجَا مِنْكَ إِلاَّ إِلَيْكَ . .» . أَي رَدَدْتُه إِليك» فتفويض الله تعالى أي ردّ الأمرِ إلَيْه ، ونزعُ اليدِ من النّظر فِيه .

ولأهلِ العلم من المتأخرين في معناه عباراتٌ منها قولهم التفويضُ «صرفُ اللفظِ عَن ظاهرِه مَع عَدمِ التَّعرُّض لبيانِ المعنَى المُرادِ منه ، بَلْ يترك ويُفوّض علمُه إلى الله تعالى بأن يقال : الله أعلمُ بمراده»

وهذا المعنى الذي ذُكرهنا غيرُ قويم لجعلِ منـاط التفـويضِ هـو المعنـى . ومنطقُ العقلِ ومِن فوقِه حكمةُ الشّرعِ لا يقضيان بأن يكون في بيـان الـوحـي ما لا سبيل إلى العلمِ بمعناه . فذلِك يفضِي إلى أنّ الله تعالى خاطب عبادَه بما سبيل لهم إلى علمه منه ، والله تعالى قد وصف كتابَه بأنَّه بلسان عربيٍّ مـبينٍ ، فدلّ هذا على أنَّ القرآن إنّما أنزل ليعلم الناسُ ما فيه مِن معانِي الهُدَى ، وليس فيه ما يَعجزُ العلماءُ عن فقهِ معناه ، ليفوّضوا علمه إلى الله تعالى .[1]

---

(١) ينظر : درء تعارض العقل والنقل . تأليف : تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية (ت : ٧٢٨هـ) تحقيق : محمد رشاد سالم . نشر : جامعـة الإمـام محـمـد ابن سعود الإسلامية ، المملكة العربية السعودية . ط(٢) عام ١٤١١هـ . ١/٤٠١، ٤٠٢ .

مذهبُ السَّلفِ هُو أنـَّهم يعلمُون معنى أسمائِه وصفاتِهِ سبحانه وتعالى وما أنبأ به من الغيبِ المُطلق ، ويفوّضون إلى الله تعالى العلم بكيفيته . فمناط التفويضِ ليس علم المعنى ، بل مناطه العلم بالحقيقة وبالكيفية .

والحقُّ سُبْحانَه وَتَعالَى في سورةِ البقرةِ ، وهي سورة معقودة لتقرير فريضة الإيمان بالغيبِ ، فهو رأس الأمر فيها ومركز القصد قال في قصّة سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾(البقرة:٢٦٠)

سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ سأل ربه سُبحانه وتعالى عن كيفية إحيائه الموتى . ولم يسأله عن معنى إحياءِ الموتى لأنَّه معنًى معقول ، لم يسألْ عن معنى الفعل ، سأل عن كيفيتِه .

فبم أجابه اللهُ سُبْحانَه وَتَعالَى : أ قال له : لا تسأل . أو قال له : لا طاقة لك بعلمه؟

كلا ، بلْ أقَامَه مقامًا قاطعًا في أنّه سأل ما لا طاقة له بعلمه لأنّه فوق عقلِه .

قال له : ﴿ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (البقرة:٢٦٠)

أمره بأربعة أفعالٍ يقُوم هو بها :

خُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ

صُرْهُنَّ إِلَيْكَ

اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءاً

ادْعُهُنَّ .

كلُّ فعل من هذه لا يؤدّي إلى جوابِ ما سألَ عنْه سيّدُنا إبراهيمُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ .

هـذا الّـذِي أمـرَه بفعـلِـهِ لـم يُثمرْ له علمًا بكيفيةِ إحياءِ الموتَى ، ولا رؤيـةِ ما يكونُ في إحالةِ الميّتِ حيًّا ، كلّ الذي رَأَى هُو إتيانُ الطّيرِ إليْـه سَـعيا عنـد دعوتهنّ ، ما الَّذِي حَدث بيْن دعوُتها إليْه وإتيانها إليْه؟

ذلِك الّذي أَرادَ سيّدُنا إبراهيمُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ أن يعلَمَه ، وذلـك مـا لمْ يكشفْ اللهُ تعالى له عَنه ؛ منْ أنّـه فوقَ طاقةِ عقلِه وبصرِه .

فسبحانَه وتعالى لم يُعلمه بالكيفية ؛ لا حرمانًا له ، أو ضنًّا عليْـه بهـا ، بـلْ لأنَّ هذا الّذي سألَ عنه لا يطيقُ علمَه عقلُه ، فكان جوابُه مـن قَبيـلِ مـا يُسـمَّى عند البلاغيين بـ« أسلوبِ الحكيم ».

فدلَّنا هذا عَلَى أنَّ العلم بكيفياتِ الغيبِ فوقَ طاقة العقلِ البشـريّ وإن كـان عقلَ أبي الأنبياءِ وخليلِ الله تعالى سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وعلمنـا هذا أنّ من يسْعَ لعلم ما لا طاقة لعقله بعلمِه ، فقد كلَّف نفسَـه مـا لا تطيـقُ ، وأنفقَ عمرَه وجهده فيما لا ينتفعُ به ، بل ولا يُتوصَّل إليه ، فأقلُّ معاباتِـه أنـّه تبذيرٌ وإسرافٌ في إنفاقِ العُمُرِ وبذلِ الجُهدِ والله تعـالى قـد نهَـى عـن التبـذير والإسراف .

بقِي عندي أمرٌ في شأن قصة أبي الأنبياء عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ :

لم يكن قط سؤال سيّدنا إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّـلامُ سـؤال شـكٍّ ، أَنـّى ، وهو الخليلُ ؟!!!

وما رواه الشيخان البخاري في كتاب (التفسير) ومسلم في كتاب (الإيمان) و(الفضائل) بسندهما عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ ـ رضى الله عنه ـ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ (رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْيِى الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ

تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِى) قد يتسارعُ عجلٌ فيتوهم أن النبيّ ﷺ يشيرُ إلى أن سيّدنا إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ قد وقعَ منه الشك؟

ما هكذا تورد ياسعْدُ الإبل .

هذا من سيّدنا رسول الله محمّد صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ استدلالٌ قطعي الدّلالة على أنّ سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ لم يقع منه الشَّكُّ فيما سأل عنه قط .

قول سيدنا محمّد ﷺ : «نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ» . نفي قاطعٌ لوقوع الشّك من سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ .

هو ﷺ يقول لنا : لو شكَّ إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ لكنا نحن كذلك ، ونحن ما شككنا ، فهو أولى باليقين منا .

وهذا نهجٌ في التّقريرِ والمُحاجة في بيان النُّبوّة ، فهو أدخلُ في باب دَلالة اللّزوم المُحكمة .

وغيرُ قليلٍ من خصائص التراكيب الاستدلالية الحِجاجية تنتمي إلى هذا الباب من وجهٍ وهذه أودية لم تستزرع . وحسنٌ أن نسعَى إلى إنصافِه في الدّراسات البلاغية العليا في جامعاتنا . وأن يكون منطلقُنا منطقيةَ العقلِ العربيّ المسلم ، وليس منطلقُنا منطقيَّةَ العقل الأرسطوطاليسيّ [1].

---

(١) إذا ما أردنا أن نعيد لعلم البلاغة الاستدلالية حقه من العناية به ، فليس حسنًا أن نجعل ما جاء به أبو يعقوب السكاكي في كتابه «مفتاح العلوم» في باب «الاستدلال» عمدتنا أو له سلطان على فعلنا ، علينا أن نعمد بأنفسنا إلى إقامة قواعد هذا العلم إقامة تحقق خصائص اللسان العربي في الإفهام والإقناع من خلال حسن البصر ببيان الوحي في هذا الباب ، وحسن البصر ببيان الإبداع فيه .
ولوأنّ الله سُبْحانَه وَبِحمدِه هداني لهذا في باكر عملي بالبحث العلمي لانصرفت إليه بالكلية ، ولكن قدر الله تعالى لي غير ذلك وما شاء فعل ، وما يقدره لنا هو الخيرُ والفضل والإحسان فله الحمد والشكر ما بقيت الحياة .

إنَّ في بيان الوحي قرآنا وسنة منهاجًا بيّن المعالم لمنطقية هذا العقل العربيّ المسلم يمكن لطلابِ العلم أن يضعوا أيديهم عليها ، وأن يعدوها واحدةً واحدةً وأن يسموها شيئا فشيئًا .

* * *

إن قيل : إن الله سُبْحانَه وتَعالَى يقول : ﴿ **هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۘ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ** ﴾ (آل عمران:٧)

ومِن أهل العلم من أوجبَ الوقفَ على اسم الجلالة في قوله تعالى : ﴿ **وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ** ﴾ (آل عمران:٧) واستأنف القراءةَ بقوله تعالى ﴿ **وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ** ﴾ (آل عمران:٧) جاعلا (الواو) في (وَالراسِخون) استئنافية ممّا يدلّ على أنَّ تأويلَه مقصور على الله تعالى . وهذا هو عَيْن تفويض معناه إلى الله تعالى .[١]

إن قيل ذلك أُجيبَ بأنَّ هذا لا يصحُّ الاستدلالُ به على ما يُذهبُ إليْه من تفويضِ المعنى إلى الله تعالى لأُمور :

« الأوّل : أن القولَ بوجوب الوقف على آخر قوله (إلاّ الله) لم يتفق عليْه أهل العلم ، منهم طائفة لا توجبُ الوقف عليه ، بل تعطف قوله تعالى (الرَّاسخون) على اسم الجلالةِ .

---

(١) ينظر في مذاهب العلماء في الوقفِ في الآيةِ كتاب : إيضاح الوقف والابتداء ، تأليف : أبي بكر الأنباري (ت : ٣٢٨هـ) تحقيق : محيي الدين عبد الرحمن رمضان . نشر : مطبوعات مجمع اللغةِ العربية بدمشق . عام : ١٣٩٠هـ ٢/٥٦٥ .

وما كان هـذا شـأنُه يسـقط الاسـتدلالُ بـه كمـا هـو مقـرَّرٌ في أُصـول علـم الاستدلال .

والثاني : أنَّ الذين رأوا الوقـفَ علـى قولـه تعـالى (إلا الله) أرادوا بالتأويـل تأويل حقيقة المعاني ، والكيفية ، وموعد الوقوع . . . ، أي لا يعلمُ بـذلك إلا الله تعالى ، وأمَّا المعنى الذي يدركُه العقلُ فليس مُحاجزًا عن إدراكِه . ذلك أن القرآن هدًى للناس ، ولا يكون كذلك إلا إذا كان كلُّ ما فِيه معناه معقولاً .

والثالث : أنّ التّأويل الذي اختصّ الله تعالى بعلمه لـيس هـو التأويـل الـذي يقُول به المتأخرون ، فسلف الأمة لكلمة التَّأويل عندهم معنى غير الـذي عنـد المتأخرين :

السَّلفُ لا يُريدُ بالتأويلِ صرف اللّفظ عن ظاهره إلى معنـى آخـر ، فـذلك مفهومٌ مُستحدث بعد القرون الأولى .

والتأويل في القرآن جاء بمعنى آخر هو عاقبة الأمر ، وما يؤول إليه الكلام . ولذا قالت السيدة عائشة رضي الله عنها فيما رواه البخاري في كتاب الأذان بسنده : أَنَّهَا قَالَتْ كَانَ النَّبِىُّ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ فِى رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ « سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِى » يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ .

وروى البخاري في كتاب الحج بسنده عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ ـ رضى الله عنهما ـ أَنَّهُ قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَيْنَ تَنْزِلُ فِى دَارِكَ بِمَكَّةَ . فَقَالَ « وَهَلْ تَرَكَ عَقِيلٌ مِنْ رِبَاعٍ أَوْ دُورٍ » . وَكَانَ عَقِيلٌ وَرِثَ أَبَا طَالِبٍ هُوَ وَطَالِبٌ وَلَمْ يَرِثْهُ جَعْفَرٌ وَلاَ عَلِىٌّ ـ رضى الله عنهما ـ شَيْئًا لأَنَّهُمَا كَانَا مُسْلِمَيْنِ ، وَكَانَ عَقِيلٌ وَطَالِبٌ كَافِرَيْنِ ، فَكَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ـ رضى الله عنه ـ يَقُولُ لاَ يَرِثُ الْمُؤْمِنُ الْكَافِرَ . قَالَ ابْنُ شِهَابٍ وَكَانُوا يَتَأَوَّلُونَ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ** ﴾ (الأنفال:٧٢) الآيَةَ .

وروى أحمدُ في مسنده بسنده عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عُمَرَ يُصَلِّى حَيْثُمَا تَوَجَّهَتْ بِهِ رَاحِلَتُهُ وَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَفْعَلُ ذَلِكَ وَيَتَأَوَّلُ عَلَيْهِ ﴿ **وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ** ﴾ (البقرة:١٤٤) .

هذا هومعنى التأويل عند سلف هذه الأمة .

ومِن المُقرَّر في منطق البحث العلميّ أنّه إذا ورد مُصطلحٌ في كلامِ بعضِ أهلِ العلمِ فإنَّ منطقَ العلمِ والحقِّ أن يُنظرَ في سُنَّةِ مَن تكلَّم بِه في مُرادِه به ، فإنَّ المُصطلحاتِ تَختلفُ مَدلولاتُها باختِلافِ الحِقبِ الزَّمنيّة وباختلافِ أنواعِ العُلوم التِي وَردت فيها ، وأنْ تُعتبرَ الأعرافُ الّتي يُؤخذُ بِها في ذلك العلمِ ، ومِن ذلك العالمِ نفسِه ، فالمُصطَلحُ الواحِدُ يَردُ عندَ أكثرَ مِن عالم ، وفي أكثرَ مِن عِلم ويكونُ له في كلٍّ مرادٌ ، فوجب ضَبطُ ذلك ، حتَّى لا يحرّف القولُ عن مواضعِه ، فَينسبَ إلى العالمِ ما لم يُرِدْهُ .

أما التَّأويل بمعنى « صرف اللفظ عن الاحتمال الرَّاجح إلى الاحتمال المرجوح لدليل يقترن به » فذلك الذي لم يُرده السَّلفُ ولم يَكونوا يعرفُونه ، فسقط الاستدلالُ بآية سورة آل عمران على جواز التفويضِ في المعنى . . وبقيتْ مشروعيّة التفويض في حقائقِ معانى أخبارِ الغيبِ وكيفيّاتها . وبطل ما خالف ذلك .

حاصلُ الأمرِ أنَّ السلفَ لا يقولون بالتفويض في علم المعنى ، وأن قوله تعالى : لا يعلم تأويله إلا الله لا يُراد به تأويل معناه ، بل تأويل كيفيته ، ونحوها ، فَمعنى المتشابه هو ممَّا يعلم الرَّاسخون معناه ، ولذا قال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنهما أنا ممن يعلم تأويله ، أي تأويل معناه .

وعلى هذا فالمذهب الحقُّ هومذهبُ السَّلف القائل بأنَّ المعنى معلومٌ وأنَّ الكيفَ مجهولٌ ، وبذلك جاءت عبارة الإمام مالك بن أنس رضِيَ الله عَنْهُ عندما سئل عن قول الله سُبْحانَهُ وتعالى : ﴿ **ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ** ﴾ (طه:٥).

فقال : «الاستِواءُ غيرُ مَجهولٌ ، والكَيفُ غيرُ معقولٍ ، والإيمانُ بِه واجبٌ ، والسُّؤال عنه بِدعةٌ»[1]

تبصّر قوله : (الاستواء غيرُ مجهول) وهي عبارةٌ جليلةٌ ، لأنّها تدلُّ على أنّه ممَّا لا يلحقُه الجهلُ به ، وهو عندى أدلُّ مِن قولنا (الاستواءُ معلومٌ) لأنّ نعتَه بأنّه معلومٌ يُمكن أن يفهم منه التّفاوت في درجات العلمِ به ، أمَّا نفي جهلِه ، فلا يتحقق فيه التَّفاوتُ في درجات النَّفي ، لأنَّ النَّفي لا يلحقه التَّفاوتُ في الدّرجات بخلافِ الإثباتِ .

يؤوّلُ بعضُ أهلِ النَّظر عبارةَ الإمام مالكٍ (الاستواء غير مجهول) على معنى أنَّه غيرُ مجهولٍ ورودُه في القرآن ، ولا يؤولُه على أنه غيرُ مجهولٍ معناه ، وهذا التأويلُ عقيمٌ ؛ لأنّه لا معنى أن يقول مالكٌ إنّ الاستواءَ واردٌ في القرآن ؛ لأنّه قال بعد ذلك : «والإيمان به واجب» بل الصَّواب أن المعنى والاستواء غيرمجهول معناه ؛ فَهذا هو الموافق لحقيقة أنَّ القرآن نزلَ لِيفهم معناه وليؤمن به ويصدق خبره ، وليطاع أمره ونهيه احتسابًا .

---

(١) تنظر عبارة الإمام مالك في كتاب : الرَّدُّ عَلى الجَهَمِّيَة . تأليف : أبي سَعِيدٍ عُثمَانَ ابن سعِيدٍ الدَّارمِيِّ . (ت : ٢٨٠هـ) تحقيق : أَبوُ عَاصِم الشَّوَامِيّ الأَثَرِي . نشر : المكتبة الإسلامية ، القاهرة ـ ط(١) عام ١٤٣١ هـ ص : ٦٩ ، وكتاب : الأسماء والصفات . تأليف : أبي بكر البيهقي (ت ٤٥٨هـ) تحقيق : عبد الله بن محمد الحاشدي . تقديم : مقبل بن هادي الوادعيّ . نشر : مكتبة السوادي ، جدة – ط(١٩) عام : ١٤١٣ هـ ٢/٣٠٥

وما نسب إلى الإمام مالك بن أنس ، نسب موقوفًا إلى أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها ، غيرأن أهل العلم قالوا بضعف نسبته إليها ، وأن المشهورالوثيق نسبته إلى مالك ابن أنس ، وإلى ربيعة الرأي . ينظر كتاب «العلو للعلي الغفار في إيضاح صحيح الأخبار وسقيمها» تأليف شمس الدين الذهبي (ت : ٧٤٨هـ) تحقيق أشرف عبد المقصود . نشر : مكتبة أضواء السلف ـ الرياض . ط(١) عام ١٤١٦هـ ص٨١ ..

وقول سيّدنا مالك بن أنسٍ رضِيَ اللهُ عنه (والسؤال عنه بدعة) يريد به والسؤال عن الكيفِ بدعةٌ ، وليس السُّؤال عن معنى الاستواء ، فالسُّؤال عن معانِي القرآنِ إنّما هو مِن طلبِ العلمِ المحمودِ .

وانْظر كيفَ نسقَ الإمام مالك رضيَ الله عنه عبارته ورتَّب الجمل ترتيبًا مكينا :

بدأ بتقريرِ انتفاء الجهلِ بمعنى الاستواء ، فدلَّ على أنّ معنى الاستواء محل العلمِ بِه ، فهو غير ممتنع عنه ، وغيرُ قابلٍ لأن يُجهلَ . ثم لم يجرّد كيفية الاستواءِ من العلم بها فحسبُ ، بل جرَّدها من أن تكون محلّ الإدراك العقليّ : نفى عن العقل أن يكون أداةَ إدراكها ، وبذلك قطعَ السَّبيلَ عن المنازعة ، فلو قيل : والكيفُ غيرُ معلوم ، لقيل له : بل ثَمَّ من يعلم ، فقضى بِأنَّ الكيفَ في ذاتِه غيرُ قابلٍ للتَّعقُّل البشريّ له .

وهذه من الإمامِ مالك فحولةٌ في المحاجة والمجادلة وجندلة الخصم ، وقطع الطريق .

ثم قال : (والإيمان به واجبٌ) أي الإيمان بِمعنى الاستواء على العرشِ واجبٌ ، فَسَدَّ الطَّريقَ على مَن يُوسوسُ له شيطانه إذا كان غيرَ معقولٍ كيفيّته ، فليسَ محلَّ إيمانٍ به ، لأنّ الإيمانَ مُرتهنٌ بالتَّعقل : تعقّل المعنى والكيفِ ، فوجبَ على هذا أَن لا يُؤمنَ به ، ففصل بقوله (والإيمَانُ بِهِ واجبٌ) في القضية ، وقضَى بأنَّ الإيمانَ به مصدرُه إنباءُ الوحي . فكلُّ ما أنبأَ بِه الوحيُ وجبَ الإيمانُ بِهِ ، وإنْ كانَ المرْءُ عاجزًا عَن تعقُّله ، ألا ترَى أنَّك تُؤمِن بنفسِك وعقلِك ، وروحك ، وتعلم معنى كلٍّ ، ولا سبيلَ لك إلى تعقل كيفية أيّ منها ، وَأنت تُؤمن بـ(الموت) وتعلم معناه ، ولا سبيلَ لك إلى أن تعقِلَ كيفيتِه .

كذلك يتصاعدُ الإمام مالك في بناء المعانى ونسق بعضها على بعضٍ . ثم يختم بما هو القاصمة ، أنبأ بما بعث على السؤال ، وأن السؤال في نفسِه إنَّما

هو مخرجه قلبٌ هو مزرعة البدعة . والتقصيرُ في الطَّاعة من غيرِ بدعة أهون من الاجتهاد في الطَّاعة مع البدعة ، وكأنَّه يلفتُ السائل إلى مكمن الداء ، ليسعَى إلى طلب الدواء .

وهذا من الإمام مالك من فيضِ الحكمة ، والتوفيق فختم جوابه . بالكلمةِ الفصلِ : (والسؤال عَنه بِدعةٌ) أي السّؤال عن الكيفِ بِدعَةٌ ، لأنّه سُؤالٌ عمّا لا طاقةَ للأداة التعقّل أن تطيقه ، فلو كشِف لك عن حقيقة الكيف فبأي أداة تتعقّل؟ فوجوبُ تركُ السّؤال عن الكيفِ ليس مخرجُه الضَّنُّ بعلمِه حرمانًا ، بل مخرجه أنا نفتقدُ أداة تعقله ، وليس مِن الحكمة أن يُخاطب المَرءُ بما لا يملكُ أداة تعقلِه .

روى البخاري في كتاب «العلم» في صَحيحه : « حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ ، أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ؟»

هذا الذي كان من الإمام مالك رَضِيَ اللهُ عَنه في نسق بيانِه هو الذي أريده ببلاغة الاستدلال البياني المقابل للاستدلالِ العقلي (المنطقِي الفلسفِي) الذي برع فيه اليُونان .

إنَّ دراسةَ خصائصِ التَّراكيبِ الاستدلاليّة هو شطر البلاغة الذي ما نزال بحاجة إلى أن نوفيه عديل ما وفيناه قسيمه : خصائص التراكيب الخطابية التي مبدؤها توخّى معاني النحو وأحكامه في ما بَيْن معاني الكلم على وفق الأعراض والمقاصد .

وبلاغة الاستدلال البياني عمودها علاقات المعاني التركيبية المتجاوزة ما يعرف بمعاني النّحو وأحكامه على ما هو معهود عند المتأخرين من نَحو العربية .

كان الإمامُ مالك في هذا ممتطيًا صهوة البيان البديع . ومثل كلام مالك من أقرانِه الأئمة الأعيان جدير بأن يلتفتَ إليه العقلُ البلاغي ليقضي بعض حقه

عليه ، فقد لقيت في كلام الأئمة أبي حنيفة ومالك والشَّافعي وأحمد وغيرهم من العبارات التي نفتقرُ إلى تذوق ما فيها من دقائق البيان العالي الجواد ، ولو أنا فعلنا لكان لنا سبيلٌ إلى أن نعرفَ مواقع أئمةِ علماء فهم بيان الوحيِ قُرآنًا وسنة من باب البلاغةِ إفهامًا ، وكيف أنَّ في بيانهم من دقائق البيان ولطائفه ما يُمكن أن لا تجده في كلام غير قليلٍ من الأدباءِ .

يقُولُ عبدُ القاهر : «ومَبْنَى الطباع وموضوعُ الجِبِلَّة ، على أن الشَّيْء إذا ظهرَ من مكانٍ لم يُعْهَد ظهورُه منه ، وخرج من موضعٍ ليس بمعدِنٍ له ، كانت صَبَابةُ النُّفوسِ به أكثر ، وكان بالشَّغَف منها أجدر ، فسواءٌ في إثارة التَّعجُّب ، وإخراجك إلى روعة المستغربِ ، وُجودُك الشيءَ من مكان ليس من أمكنته ، ووجودُ شيءٍ لم يُوجَد ولم يُعرَف من أصله في ذاته وصفته .»[1]

* * *

إذا ما تبين لك هذا في منهجِ الشّيخِ أبي موسَى ، وأنَّ أمرَه قد انتهى إلى الرَّغبةِ عمّا كان منه في باكر أمرِه إلى تركِ تأويلِ ما كانَ من أفق الغيبِ المطلقِ عامة وما كان من باب أفعالِ الله تعالى وصِفاته خاصة فإن بعضًا قد يتراءى له أنَّ الشَّيْخَ ذهبَ في أولِ الكِتابِ إلى التّأويل في شيْءٍ مِن هذا الباب وإن علينا في كلّ موضع من أيّ سفر من أسفاره مارس فيه التأويل أن نشير في هامش الموضع إلى ما انتهى إليه أمر شيخنا رفع الله تعالى ذكره في الصّدقين .

* * *

(١) أسرار البلاغة . ص١٣١ ، فقرة : ١١٧ .

القضية الثالثة
البيان النبوي وتغيّر الأعصار والأمصار

مقتضَى قول الله سُبْحانَه وتَعالَى في سورة «الأنبياء» من بعد الإنْباء بأخبارِ الأنبياءِ وأقوامِهم : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء:١٠٥-١٠٧)

وقوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (سبأ:٢٨)

وما رواه الشَّيخان : البخاريّ في كتاب (التَّيمم) و(الصَّلاة) ومسلم فِي كتاب (المساجد) من صَحيحهما بسندهما عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللهُ عَنهما أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ ، وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا ، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلاَةُ فَلْيُصَلِّ ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْمَغَانِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لأَحَدٍ قَبْلِي ، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً ، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً» .

وفي رواية «مسلم» : «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي كَانَ كُلُّ نَبِيٍّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ . . . .» .

وما رواه مسلم في كتاب (الإيمان) من صَحيحه بسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنه عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لاَ يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلاَ نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلاَّ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ».

وما رواه أحمد في مسنده بسنده عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ بِكِتَابٍ أَصَابَهُ مِنْ بَعْضِ أَهْلِ الْكُتُبِ فَقَرَأَهُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَغَضِبَ وَقَالَ «أَمُتَهَوِّكُونَ فِيهَا يَا ابْنَ الْخَطَّابِ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً لاَ تَسْأَلُوهُمْ عَنْ شَيْءٍ فَيُخْبِرُوكُمْ بِحَقٍّ فَتُكَذِّبُوا بِهِ أَوْ بِبَاطِلٍ فَتُصَدِّقُوا بِهِ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ مُوسَى ﷺ كَانَ حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلاَّ أَنْ يَتَّبِعَنِي» . (حسنه الألبانيّ)

مُقتَضَى كلِّ هَذِهِ الأَنْبَاء العَظيمةِ من القرآن والسُّنةِ أنَّ بَيَانَه صَلّى اللهُ وسلّم عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ بَيانٌ مَدِيدٌ البَقاءِ سَابغُ العطاءِ وَلَيْسَ صَالِحًا لِكلِّ زَمانٍ وَمَكانٍ ، فَحسبُ ، بلْ هُو مُصلِحٌ كلّ زمانٍ ومكانٍ ، فما مِن موْضعِ فسَادٍ أو إفسادٍ نزّل على بيانِه صَلَوات اللهِ وسلامُه عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ إلاَّ اسْتحالَ هذَا الفَسَادُ والإفسَادُ صَلاحًا وإصلاحًا .

ذلك هُوالطّريق . فَبيَانُه صَلّى اللهُ وسلّم عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ إنّما هُو حيٌّ مُتجَدِّدٌ ، علم ذلك كلّ مَن اتخذوا الهَجمةَ على هذا البيان رسالة حياتِهم في هذه الحقبة من مشروع استئصَال الإسلام من قلوبِ العبادِ .

استحضارُ حقيقةِ أنَّ بيانَ النُّبوّةِ بيانٌ حيّ مُتَجدّدٌ ليْسَ صَالِحًا لِكلِّ زمانٍ ومكانٍ وجِنسٍ فَحسْبُ ، بلْ هُوَ المُصلحٌ كلّ زمانٍ ومَكانٍ وجنسٍ في وجهِ الهجومِ المُمَنهَج المدبّر علَى السّنة النّبويّة باعتباره خُطوةً إلى الهُجوم على البيان القرآنيّ في سبيل تحقيقِ المَرحلة الأخيرةِ من المخطط العلمانيّ : هي مرحلة (تجريم الإسلام الحقّ) بعد الفراغ تقريبًا من المرحلة الأولى : (تغْريب الإسلامِ الحقّ) ومن المرحلة الثانية : (تغييبِ الإسلام الحقّ).

جاءت المرحلة الأخيرة : مرحلة «تجريم الإسلام الحقّ» من خلال عدّة عوامل وروافد منها تكثيفِ الهجوم على السّنةِ النبويّة وأنّها فهمٌ شخصيّ

تاريخيّ من محمد صَلّى اللهُ وسلّم عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ للقرآن لا يلزم كلَّ مسلم أن يأخذَ به[1].

جنَّدوا سحرةَ إبليس عبرَ وسائل الإعلام والمؤسسات الثقافية لشنّ هذا الهجوم . ونبتت فرقة «القرآنيين» ، فكان لزامًا الجهادُ في بيان الحقّ ، وكشف حقيقة أولئك العابثين في عقلِ الأمّة ودينها ، وفِي عِرضِها أيضًا .

كان لزامًا بيانُ أنَّ بيانَ النُّبوة قدْ قيلَ في عصرِ المَبعث ، وكأنَّه قيل لنا في هذا العصر ، وكأنَّه سيقال لكلّ عصرٍ . فما تنبتُ في النّاسِ نابتةٌ إلا ويُمكنك أن تسمع سيّدنا رسُول الله صَلَوات اللهِ وسلامُه عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ يكلِّمك فيها إنْ كنتَ ذا سمعٍ .

وهذا من مقتضَياتِ عمومِ الرّسالة وديمويتها وأنَّها للنَّاس كافة في كلِّ عصر ومصرٍ وجنسٍ ولسان . ومن أنكر هذه الحقيقة فقد كفرَ بما جاء به القرآن الكريم : ﴿ **وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ** ﴾ (سبأ:٢٨)

ومن كَفرَ بحرف من القرآن ، فقد كفرَ كفرًا بواحًا يُخرجُه مِن المِلّة الإسلاميِّةِ خروجًا كاملاً .

كان الشَّيْخُ حفيًّا بهذه القضيّة ؛ لأنّها قضيَّةُ مَصيرِ أُمَّةٍ مُرتبطٍ بمصير دينِها . فهي أمّةٌ ليس كمثلها أمّةٌ : أمّة لسانها مرتبطٌ بكتاب دينها الخاتم ، فكان في

---

(١) في كتابي : «تغييب الإسلام الحق» الذي نشرته مكتبة وهبة بالقاهرة بيانٌ لما يصطنعوه لتحقيق هذه المرحلة وفيه مناقضة ودحض للكتاب الفتنة (الإسلام الحق) الذي نشرته الهيئة المصرية العامة للكتاب بثمن زهيد نشرًا للفساد والفتنة وتحدّيًا لتوصية مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر بمنع نشره لما فيه إضلال وإفساد .
﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ** ﴾ (النور:١٩)

هذا حفظًا إلهيًّا لهذا اللّسانِ لم يتحقَّق لأيِّ أمة من قبل ، ولن يتحقّق البتّة لغيرِها . وهذا يعنِي أنَّ أصول منهاج الفهم وأدواته لهذا الكتابِ لن تتغيّرَ .

وهِي أمَّةٌ وجودُها من وجودِ دينِها قائِمًا فتيًّا له سلطانُ ضبطِ حركةِ الحياةِ إلى مراد الله الشّرعيّ وتلك رسالةُ ورثةِ الأنبياءِ ورسالةِ الأمّة جمعاء ومن هنا كان احتفاء الشيخِ بهذه الحقيقة .

يقُول الشيخ في قيمة كلامه صَلَوات اللهِ وسلامُه عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ : « أنه كلامٌ حيٌّ باقٍ في الأمّةِ لا يبلى ، ولايسقطُ مِنه حرفٌ »[1]

ومن أجلِّ معالمِ إعجازِ بلاغة بيانه صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ وأظهرِها أنَّه البيانُ الباقِي في النَّاسِ لا يسْتطيعون أن يردُّوا عليْهِ قليلاً من معانيه في أيَّ أمرٍ أبانَ فيه،ولا أن يستوحشوا على تقادم الزَّمان كلمة توثَّق نسبها إليْه، ولا أن يجدُوا فيه كلمةً خلاءً مِن كريم عطاءٍ .

يقُول الرافعيّ : « معلومٌ أنّه ﷺ لا يتكلّفُ ولا يتعمَّل ، ولم يكتُبْ ولم يؤلِّفْ ، ومع هذا لا تجِدُ في بلاغتِه موضعًا يقبلُ التَّنقيح ، أو تعرفُ له رقّة من الشَّأن كأنمّا بيْن الألفاظِ ومعانيها في كلِّ بلاغتِه مقياسٌ وميزانٌ ، أوْ كأنَّ هذِه البلاغةُ تَنْبَثِقُ بالكلامِ علَى طبيعةٍ عاملةٍ فيه بقواها الدَّائمةِ الثّابتةِ ، ففنُّها الجميلُ هو التَّركيبُ الَّذي تجيْءُ فيه كَما ترَى الشّجر مثلاً كاسيًا مِن ورقِه وزهرِه ، فأنتَ مِنه بإزاءِ عملٍ جميلٍ ؛ لأنَّك بإزاءِ حقيقةٍ طبيعيَّةٍ قَد انفردَتْ في ذاتِها ، ومعنى انفرادِها في ذاتها أنَّها كذلك هِي ، فليْس فيها موضعٌ لشيْءٍ غيْر ما هُو فِيها »[2].

بيانٌ كهذا لا يكونُ إلا إذا كان قد أُقيم للزَّمان كلّه ، والعالمِ كلّهِ . فعالميةُ بيانِه قائمةٌ أدلتُها وبراهينُها فيه هو ،لا يفتقرُ إلى شيْءٍ من خارجِه ليشهدَ له بِها ،

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم ٢٩/١ .

(٢) من وحي القلم ٢٠/٣ .

فالله سُبْحانَه وبِحمدِه يُخاطبه ممتنًا عليْه ومعلّما لنا وهاديا : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ (النساء:١١٣)

تبصّر قوله سُبْحانَه وبِحمدِه : ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ﴾ كيف أنه لم يقل : وعلمك ما لم تعلم ، ولا يغيمُ عليْك فضلا عن أن يغيب ما بيْن القوليْن : قوله ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ﴾ ممَّا فيه أنّه جَلَّ جَلالُهُ علمه ما لم تكن نفسُ رسُولِ الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ مؤهلةُ من حيثُ هو بَشر غير نبيّ أن يتعلمه لِما هو فوق طاقتِهِ البشريّة الصِّرفة وما لمْ يكن للعالمين أجمعين أن يعلموه لوكان قابلاً لأن يتعلم ، فهو بذاته صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ ليسَ متمكنًا من ذلك ، وليس في العالمين من يقتدر على أن يعلمه ذلك ، فجمع له بيْن الأمريْن :

هيّأه جَلَّ جَلالُهُ لذلك خرقا لطاقاتِ البشريةِ وإمكاناتها ومهاراتها . وصِناعتها على نحو آخر فريدٍ لم يكن ولنْ يتكرر ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴾ (الضحى:٦)

وكان هو سُبْحانَه وبِحمدِه معلّمه ، فإذا ما كان أبو البشرعَلَيه السّلام قد علمه الله تعالى الأسماءَ كلَّها ، فإنَّ سيّد الخلائق سيّدنا محمَّدًا صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ قد عَلَّمَه الله جَلَّ جَلالُهُ مَا لَمْ يكُنْ مهيئًا بنفسِه أن يَعْلَمه ولو اجتمع العالمون على تعليمه .

فمن كان هذا شأنه كان بيانُه بيانًا عالميًّا أبديًّا مقرونًا بقاؤه ببقاءِ الحياة ، محمولا على متن الليل والنّهار ، فما من بقعةٍ حلَّ فيها ليلٌ أونهارٌ إلا كان هذا البيانُ النبويّ أهلاً لأن يحلّ فيها ، وأن يصلحها ، ويطهرها ممّا فيها من فسادٍ وأوضارٍ ومضارٍ .

وممّا هو قاطع في عالمية دعوته وسيرورتها في الأرضِ جميعها ، وفي كل بني آدم ما بقيت الحياة قول الله سُبْحانَه وبِحمدِه :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ (آل عمران:٨١)

تبصّر كيف أنّه أخذ الميثاق على كلّ الأنبياء من قبل سيّدنا محمّد صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ أن يؤمنوا به وأن ينصروه . فلا يكفِي الإيمان بِه ، بل لا بدَّ أن يقترن هذا بنَصرِه في نَفسِه ودينه وسُنَّته .

وإذا ما كان هذا ميثاقًا على كلّ الأنبياءِ ، فهو ميثاقٌ لا محالةَ على أمَمِهم أجمعين . فكلّ مَن جاءَ منذ بعثِه صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ إلى يوم الحاقة في كلّ عَصْرٍ ومِصْر وجِنْسٍ هُو الْملزمُ بالأمريْن معًا ، فمَن قامَ بالإيمانِ بِهِ ولَم ينصرْه في نفسِه ودينِه وسنتِه فقد قام بشطر ما ألزم بِه .

ومِن نصرِه الملزم به كلّ عاقلٍ تقريرُ أنّه النَّبيّ الخاتم لكلِّ عصرٍ ومصرٍ وجنسٍ ونصر ذلك ، والدّفع عنْه ، ونشره في النَّاسِ إيمانًا واحتسابًا ، فمن توقف في هذا فكيف بمن تردد أوْ ردَّ أو عاند فقد خرج من الإسلام . .

يقُول ابن تيميّة : « قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ مِنَ السَّلَفِ : مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إلا أَخَذَ عَلَيْهِ الْمِيثَاقَ لَئِنْ بُعِثَ مُحَمَّدٌ وَهُوَ حَيٌّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ وَلَيَنْصُرَنَّهُ وأَمَرَهُ أَنْ يَأْخُذَ الْمِيثَاقَ عَلَى أُمَّتِهِ لَئِنْ بُعِثَ مُحَمَّدٌ وَهُمْ أَحْيَاءٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَيَنْصُرُنَّهُ وَالآيَةُ تَدُلُّ عَلَى مَا قَالُوا ، فَإِنَّ قَوْلَهُ ـ تَعَالَى ـ : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ (آل عمران:٨١) يَتَنَاوَلُ جَمِيعَ النَّبِيِّينَ ﴿ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ﴾ (آل عمران:٨١)

وَهَذِهِ اللامُ الأُولَى تُسَمَّى اللامَ الْمُوَطِّئَةَ لِلْقَسَمِ وَاللامُ الثَّانِيَةُ : تُسَمَّى لامَ جَوَابِ الْقَسَمِ ، وَالْكَلامُ إِذَا اجْتَمَعَ فِيهِ شَرْطٌ وَقَسَمٌ وَقُدِّمَ الْقَسَمُ سَدَّ جَوَابُ الْقَسَمِ مَسَدَّ جَوَابِ الشَّرْطِ ، وَالْقَسَمِ . . .

وَمِنْ مَحَاسِنِ لُغَةِ الْعَرَبِ أَنَّهَا تَحْذِفُ مِنَ الْكَلامِ مَا يَدُلُّ الْمَذْكُورُ عَلَيْهِ اخْتِصَارًا وَإِيجَازًا لا سِيَّمَا فِيمَا يَكْثُرُ اسْتِعْمَالُهُ كَالْقَسَمِ (وَقَوْلُهُ) : ﴿ **لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ** ﴾ (آل عمران:٨١) هِيَ مَا الشَّرْطِيَّةُ ، وَالتَّقْدِيرُ : أَيُّ شَيْءٍ أَعْطَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ ، وَلا تَكْتَفُوا بِمَا عِنْدَكُمْ عَمَّا جَاءَ بِهِ وَلا يَحْمِلَنَّكُمْ مَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ عَلَى أَنْ تَتْرُكُوا مُتَابَعَتَهُ بَلْ عَلَيْكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِهِ وَتَنْصُرُوهُ ، وَإِنْ كَانَ مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ فَلا يُغْنِيكُمْ مَا آتَيْتُكُمْ عَمَّا جَاءَ بِهِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ لا يُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ .

فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ مَنْ أَدْرَكَ مُحَمَّدًا ﷺ مِنَ الأَنْبِيَاءِ وَأَتْبَاعِهِمْ وَإِنْ كَانَ مَعَهُ كِتَابٌ وَحِكْمَةٌ فَعَلَيْهِ أَنْ يُؤْمِنَ بِمُحَمَّدٍ وَيَنْصُرَهُ كَمَا قَالَ ﴿ **لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ** ﴾ (آل عمران:٨١) » [1]

كلُّ من زعم أنّ من مَات بعد مبعثِ رسُول الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ غير مؤمن بِه ، وكان على دين من يهوديةٍ أو نصرانية هو ناجٍ من الخلودِ في النار هو خارجُ من الإسلام إن كان يعقلُ ما يقول ، ويقصده . فالزَّعم بأن ممّن مات على النصرانية أواليهودية ، وصنع للناس ما ينفعهم

(١) الجوابُ الصَّحيحُ لمنْ بدَّل دينَ المسيحِ . تأليف أبي العباس التقي ابن تيمية : أحمد ابن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني (ت:٧٢٨هـ)(م.س).٢/١٢٠-١٢٤

هومن أهل الجنةِ كان مرتدًا عن الإسلام ، وإن كان في النّاسِ فقيه عصرِه إلا أن يتوبَ ويعمل صالحًا ، وتبرأ ممَّا أذاعه في النَّاسِ[1].

إننا لنؤكد في حزم بالغ ويقين قاطع أن مَن مات غير مسلمٍ هو مخلد في نار جهنم كائنًا من كان . ومن ترحّم عليْه أو استغفر له ، وهو يعلم ما يقول ويقصِده فهو مثله . ومن نكص عن أن يعلن ذلك أو خشي أحدًا من العالمين فقد حقر نفسَه .

وليس هذا من الفتنة المجتمعية في شيءٍ ، وإنما توجبه فريضة النّهي عن المُنكر ، وإنقاذ النّاس من سوء عقبى الجهالةِ والضَّلالةِ .

روى أحمد في مسنده بِسَنده عَنْ أَبِى سَعِيدٍ الْخُدْرِىِّ عَنِ النَّبِىِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « لاَ يَمْنَعَنَّ رَجُلاً مِنْكُمْ مَخَافَةُ النَّاسِ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِالْحَقِّ إِذَا رَآهُ أَوْ عَلِمَهُ » .

والشّيخُ في سِفره حفيّ بتقريرِ عالمية رسالة الإسلام وأن كلَّ دين غير ما أتِى به سيّدنا محمد ﷺ مردودٌ على صَاحبِه .

وهو إذ يقرّر ذلك نورًا يضيءُ القلوب والدّروب يقرّرُ ذلك أيضًا سيفا يقفُ بِه في وجهِ مَنْ يريدُ لِهذه الأمّة أن تبحثَ عن النُّور الكاشف عَن صَالحها فيما أنتجه العقلُ العصريّ ، ولاسيّما العقل الغربيّ الصليبيّ ، فـ « مصرُ » عندهم أقربُ عقلا وثقافة وعاداتٍ وتقَاليد ومراسيم وأخلاقًا إلى السواحل الشّمالية للبحر الأبيض المتوسط منها إلى الساحل الشّرقيّ للبحر الأحمر . فكل ما جاء من قبلِ هذا السّاحل الشرقيّ للبحر الأحمرِ لا يتجاوب في زعمهم مع واقع الحياةِ في « مصر »

هم يقُولون ذلك على الرغم من علمهم الوثيق بأنّه قولٌ هالك في نفسِه ، لنْ يجدَ له سبيلاً إلاَّ إلى قلبِ هالك مِن قبلِهِ ، ولكنّها الزُّلفَى إلى « أمّ جميل ».

---

(١) ينظر في هذا كتاب « دين الله واحد » لمحمود أبي رية . . وقد أعادت الهيئة المصرية العامة للكتاب نشره بثمن زهيد بعد أن كاد لا يعلم كثير عنه شيئًا .

إنّ عالميَّة السُّنة وصَلاحَها لكلِّ عصرٍ ومصْرٍ وجنسٍ بلْ إصلاحها كلّ عَصرٍ ومِصرٍ وجنسٍ من عالمِيّة القرآن الكريم وديموميّة رسالتِه ونوره ما بقيتْ علَى الأرضِ الحياةُ .

وإنَّ مِن عواملِ حفظِ السُّنة حفظُ الله تعالى كتابَه الكريم الّذي تكفل بِه : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (الحجر:٩) جعل سُبْحانَه وَبِحمدِه حقيقة حفظِه القرآنَ عديلَ حقيقة إنزالِهِ فجعلَ ما يعربُ عن ذلك جملةً معطوفةً على جملة تعربُ عن حقيقة إنزاله سُبْحانَه وَبِحمدِه القُرآن ، وجعلَ كلاً مؤكدًا ، فجلالُ الألهيةِ وجمالُ الرُّبوبيّة حاضران في هذه الآيةِ على نحوٍ لا يُمكنُ لبصيرةٍ أن تُشْغلَ عنْ إدراكِهما .

وحفظه جَلَّ جَلالُهُ الذكرَ متسع لا يُحاطُ به ، ولا يحُصرُ في نوعٍ أو زمانٍ أوْ مجالٍ مِن محالات الحفظِ ، فكلُّ ما يتعلقُ به هو في حفظِ الله سُبْحانَه وَتَعالَى له . فمنْ أرادَ أن يعتدي عليْه فإنّما هو يأذن بحرب من الله سُبْحانَه وَبِحمدِه .

﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ (التوبة:٣٢)

﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾

(الصف:٨)

وهذا الحِفظُ الإلهيُّ للذّكرِ يلزمُه أمران :

الأوَّلُ : حفْظُ السّنة النبوية .

والآخرُ : حفظ لسان العربية كما كان يُعربُ به رسُول الله ﷺ وقومه ، وإنّه لشرفٌ لنا أن ننطقَ كما كان ينطق ﷺ ، وأن تجري الكلم على ألسنتنا كما جرتْ على لسَانه صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ .

فهذان : السُّنة والعربيّةُ في كنفِ القرآن الكريم ، وحفظُهما من حفظ الله تعالى الذّكرَالحكيم الذي أكد منزله سُبْحانَه وَبِحمدِه أنه متكفلٌ بِه .

وهذا يجعلُنا نعملُ على حِفظ السّنةِ والعربيّة لِنُحُوزَ شرَفَ أن نكونَ عاملاً مِن عواملِ ذلك الحِفظِ ، ويجعَلُنا نعملُ على ذلك ونحن مُترعون بالثقةِ بِأنّا على بصِيرةٍ ونُجح ، وأنّه لنْ يخيبَ سعيُنا . وعَلى قدرِ ما نبذلُ ونتقنُ تَكونُ مثوبتُنا من الله تعالَى . ومَن رغب عنْ أن يلحقَ بالرّكب ، فلا يلومنّ إلا نفسَه وهذا يبين لك موقع أولئك الولاة على مستوى «الأسرة» والدولة الذين يجعلون غير لسان العربية هو لسان التعليم والتثقيف ويقدمون من يلوك اللسان الأعجمّى ويستقذرون جريان كلمة عربية على لسانهم فترى أحدهم قد جعل أكثر كلامه أعجميا وأكثر ما يقرأ أعجميّا .

إنَّ الرغبة عن لسان العربية هى من رحم الرغبة عن بيان الوحى قرآنا وسنة .

* * *

القضيّة الرابعةُ
قضيّة المواطنة

مِن هُموم قراءة الشَّيْخ تجلية الحقّ في شأن قضية «المواطنة» من خلال الفهم القويم لبيان رسُول الله صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ ، وهي قضية استُغلّت استغلالاً قبيحًا مِمَّن ناصرَها ، وممَّن عاندَها .

والمواطنة هي علاقة الحَقّ والواجب بيْن قومٍ اختلفت أنسابهم وعقائدهم يُقِيمون في وطنٍ واحد تحت سلطان ولي أمر عامٍ واحدٍ ، ونظام حكمٍ واحدٍ .

فلكلّ حقّ متعيّن لا يمنعُه وعليْه واجبٌ لا يتقاعصُ عن الوفاء بِه لأصحابِه سَواءَ كان ذلك الحقُّ متعلقًا بأمرٍ من أمورِ الدّين أو الدّنيا ، وسواء كان صَاحبُ الحق رجلاً أو امرأة فِي أيِّ بقعةٍ من بقاعِ الوَطن . . .

والشَّيخُ في بيانه الحقّ في هذه القضية ينطلقُ مِن كلياتٍ مسلَّمة وردت في بيان الوحي .

رأسُ هذه الكليات قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء:١٠٧) ومن كان كذلك لن يكون في سنته وهديه أثارة من ظلم لمَن خالفه أو خاصمَه أو كفَر بِه ، بلْ هو يرحمُه ، وقد تكونُ رحمته صَلّى اللهُ وسلّم عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ به كفُّه عن أن يقومُ مقامَ الظَّالمِ نفسَه وغيرَه ، فمعالمُ الرَّحمة النّبويَّة تتجلَّي في موقفه صَلَوات اللهِ وسلامُه عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ من خصومِه كَمثلِ ما تتجلَّي في موقفِه مِن مُؤازريه وناصرِيه صَلّى اللهُ وسلّم عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ .

وقول الله سُبْحانَه وتَعالَى : ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾

(الممتحنة:٨،٩)

فقه هاتين الآيتين على الوجه الصَّحيح فيه العِصمَةُ في هذه القضيّة :

العِصمةُ من ظُلم مَن لم يظلْمنا منهم .

والعِصمةُ من مُساعدة الشَّيطان على خصومِنا بموالاته وتركِ كفّهم عن الظُّلم.

والعِصمةُ مِن ترك مُناصرة من يُظلم منهم ، فهذا حقهم علينْا ما لم يظلموا ولم يعينوا علينا خصيما وما لم يعملوا على إخراجِنا مِن دِيارِنا . .

وما رواه البخاري في كتاب (الجزية) من صَحيحه بسنده عَنْ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ عَمْرٍو ـ رضى الله عنهما ـ عَنِ النَّبِيِّ صَلَوات اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ قَالَ : « مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرَحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ ، وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا » .

وما رواه أبوداود في كتاب (الخراج) من سننه بسنده عن أَبي صَخْرٍ الْمَدِينِىُّ أَنَّ صَفْوَانَ بْنَ سُلَيْمٍ أَخْبَرَهُ عَنْ عِدَّةٍ مِنْ أَبْنَاءِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَنْ آبَائِهِمْ دِنْيَةً عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ قَالَ : « أَلاَ مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا أَوِ انْتَقَصَهُ أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ فَأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ »

في هذا البيان النبوي ميثاقٌ غليظ لحقوق أهل الكتاب في ديار الإسلام لا تجد عديله لأهل الإسلام في أيّ دار لأهل الكتاب ومن دونهم . ولوأنا جعلنا

هذا الميثاق في سمع وقلب كل طالب علم وكل مسلم ، ونشرنا ذلك في وسائل الإعلام لتبين للناس قدر ما يكون لأهل الكتاب في ديارالإسلام من الحقوق المحفوظة المكفولة من نبيّ الإسلام صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ كيما يكف النّاغقون عن نغيقهم . .

وما رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين في مقدمة سننه بسَنَدِه : عَنْ أَبِي صَالِحٍ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ »(١)

والشيخ يتخذُ قول النبيّ صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ : « لهم ما لنا وعليهم ما علينا » فيجعله في أهلِ الذّمَّة ، والتحقيقُ أنَّه ليس في أهل الكتاب الباقين على دينهم ولهم ذمة المسلمين بل جاء في شأن المشركين .

روى أبو داود في كتاب (الجهاد) من سننه بسنده عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ : « أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَأَنْ يَسْتَقْبِلُوا قِبْلَتَنَا وَأَنْ يَأْكُلُوا ذَبِيحَتَنَا وَأَنْ يُصَلُّوا صَلاَتَنَا فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ حَرُمَتْ عَلَيْنَا دِمَاؤُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ إِلاَّ بِحَقِّهَا لَهُمْ مَا لِلْمُسْلِمِينَ وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ ».

ورواه الترمذيّ في كتاب (الإيمان) من جامعه . (صححه الألبانيّ).

الواردُ كما ترى إنّما هو في حقِّ مَن أسلم من المشركين ، وليس في حق أهلِ الكتابِ الباقين على دينهم ولهم الذّمة ، فكلمة « الناس » في (أُقَاتِلَ النَّاسَ) هم مشركو العرب ، وليس أهل الكتاب . لأنّ أهل الكتاب إذا عُرضَ عليْهم

---

(١) ورواه الدارمي في مقدمةِ السّنن ، والبزار في مسنده مرفوعا عن أبي هريرةَ ، والطبراني في المعجم الأوسط ، والمعجم الصغير ، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديثِ الصحيحة . ٨٨٢/١ حديث رقم (٤٩٠) وفي صَحيح الجامع الصغير وزياداته حديث رقم (٢٣٤٥) .

الإسلام فلم يقبلوا لا يقتلون ، ولا يقاتلون ، وإنّما تكونُ لهم الذِّمة ، وعليْهم الجِزية ، أمّا مشركو العربِ ، فلا يقبلُ منهم إلا الدُّخول في الإسلام أو الأسرُ فإنْ دخلَوا كان لهم ما للمسلمين قبلهم ، وعليْهم ما عليْهم .

وقد يقال إن إسلامهم قاضٍ بأن لهم ما لنا وعليهم ما علينا ، فلا يكون لقوله صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ هذا فائدة جديدة . فلو لم يقلها لكان هذا معلومًا من أصول الإسلام .

والجواب عن هذا أنّه من باب التَّأكيد والتَّذكير به ، ودفع مظنّة أن يكون لتأخُّرهم في دُخول الإسلام أثرٌ في استحقاقِهم ذلك . فصرَّح به ليكونَ ذلك حُجّةً نصيّةً قطعيّة الدَّلالةِ لِعظيمِ أهميّة الإعلامِ والتَّذكير به . فليْس الاعتدادُ بالسَّبق بل الاعتدادُ بالصّدقِ

جعلَ دخولَهم الإسلام مِن بعدِ الكُفران والعدوان مُحققًا لهم ما هو حَقٌّ لمن سبقَ إلى الإسلامِ في أوّل الدَّعوة . ولم يكن لما كان منهم في أثناء الكفر من الإيذاء للمسلمين أدنَى أثر في توفيتهم حقوقهم سواءً بسواء .

وهذا يهدينا إلى أن من كان منه في حق أحدٍ ما لايُسترضَى ثم اعتذر وأناب وأصلح ، فلا يليق أن يكون لما سلف منه أثر في استيفائه حقوق الأخوةِ في الله تعالى . وكأنَّ اعتذاره وإنابته وإصلاحه يعفو ما كان في القلوب من جرائره . ذلك شأن القلبِ الذي أناره الوحي قرآنًا وسنةً . لاتضرب الضغينة بجرانها فيه ، يقتلعها الاعتذار والإنابة والإصلاح والدخول في الجماعة .

﴿ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ (المائدة:١٣)

﴿ وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞۖ فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ ﴾ (الحجر:٨٥)

﴿ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ (النور:٢٢)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾(التغابن:١٤)

فالصفح الجميل حلية المسلم .

وإذا ما قلت إن قوله ﷺ : « لَهُمْ مَا لِلْمُسْلِمِينَ وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ» . هو في شأن من أسلم من المشركين فإنَّ هذا لا يبطل أنّ لأهل الذّمة حرمة المواطنة ، والمجاورة وحرمة المعاهدة فذلك مأخوذ من بيان نبوي آخر :

روى الشيخان البخاريُّ في كتاب (الأدب) ، ومسلمٌ في كتابِ (البر والصّلة والأدب) من صَحيحيهما بسندِهما عَنِ ابْنِ عُمَرَ ـ رضى الله عنهما ـ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ : « مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِى بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ» .

لم يقيده بالجارِ المسلمِ ، فـ(ال) فِي قوله (بالجار) للاستغراق . إلا إذا ما قلت إن قوله : « حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ» قرينة تصرف (ال) عن الاستغراقِ إلى (العهد) لأن التوارث لا يكون بيْن المسلم وغير المسلم ، فهو قرينة صَارفة عن الاستغراقِ الكامل إلى العهد الذّهني .

وثَمَّ بيان من كتابِ الله سُبْحانَه وبِحمدِه قاطعٌ فِي حقِّ الجوارِ والصُّحبةِ لا في العدل ، فحسبُ بلْ في ما فوقه من الإحسان . يقُول الله سُبْحانَه وبِحمدِه : ﴿ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ﴾ (النساء:٣٦)

جاءتنا هذه الآية في سياق سورة «النّساء» وهو سياقٌ يقرِّرُ قيامَ العلاقة بيْن النّاسِ على العدلِ والرَّحمةِ .

عطف قوله : ﴿ وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ ﴾ (النساء:٣٦)

على قولِه ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ (الإسراء:٢٣) المُقرّر أنَّ معناه وأحسِنوا بالوالديْن إحسانًا ، فيكونُ لما عُطف ما للمعطوف عليْه .

وهذا يستوجبُ أن يكون الإحسانُ لِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ ..... كالّذي للوالدين غيرَ مقيدٍ بالموافقة في الدِّين بدَلالة قوله تعالى ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (العنكبوت:٨)

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (لقمان:١٤،١٥)

تبصّر قوله : ﴿ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ (لقمان:١٥) تجدْ مِن عليّ الرّحمة واستحقاقِهم الإحسانَ إليْهما على الرَّغمِ مِن أنَّهما يجاهدانِه على الإشراكِ بالله تعالى . يحُثّ سُبْحانَه وبِحمدِه مَن آمَن به على أن يُحسنَ إلى مَن يجاهدُه ليُكفرَ به .

لم يجعل سُبْحانَه وتَعالَى إساءتهما سببًا في إبطالِ حقِّهما على ولدِهما ، ممّا يبيّنُ لك أنَّ حقَّ الوالدين لا يسقُطُ أبدًا مهْما كان مِنهما مِن عقوقٍ وإساءةٍ وظُلمٍ .

والجوارُ المستحقُّ الإحسانَ غيرُ مقيّد بزمانٍ ومكانٍ ، فكلُّ من ساكنك في وطنٍ ، فهو جارُك ، وإنْ تفاوتوا فِي الأسبقيّةِ فِي التَّوفيةِ بالإحسانِ ، فجَارُك عَن يمينِك المُلاصِقُ أسبقُ مِن جارِك عَن يسارِك فِي التَّوفيةِ وهكذا ، وكلّ مَن صاحبَك ولو قدرًا يسيرًا مِن الوقتِ في درسِك أو سُوقك أوْ سَيْرِك في الطّريق

أو فِي وسيلةٍ من وسائل النقلِ له عليك حقٌّ الإحسانِ إليْه . وأدنَى درجاتِه أن يأمَنَ بوائقك ، وأن لا يقومَ في قلبِه من لسانِ حالِك ظنٌّ أنك يُمكن أن تعتدِي عليْه .

وصنيعَه صَلّى اللهُ وسلّم عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ مع جيرانه من غيرِ المسلمين دالٌّ على عظيم بره بهم وإقساطه لهم كما جاءت به سُورة المُمتَحِنة .

روى أحمد في مسنده بسنده عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنه قَالَ عَادَ النَّبِىُّ ﷺ غُلاَماً كَانَ يَخْدُمُهُ يَهُودِيًّا فَقَالَ لَهُ « قُلْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ » . قَالَ فَجَعَلَ يَنْظُرُ إِلَى أَبِيهِ . قَالَ فَقَالَ لَهُ قُلْ مَا يَقُولُ لَكَ . قَالَ فَقَالَهَا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لأَصْحَابِهِ « صَلُّوا عَلَى أَخِيكُمْ » .

وَقَالَ غَيْرُ أَسْوَدَ « اشْهَدْ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنِّى رَسُولُ اللَّهِ » . قَالَ فَقَالَ لَهُ قُلْ مَا يَقُولُ لَكَ مُحَمَّدٌ .

الشّيخُ يلحُّ كثيراً على تبْيين الحقيقةِ في هذِه القضيّةِ ، ولا سيّما في سياقِ ما يَجري مِن حوله من أحداثٍ جثام . يقُول في مَعرض بيان مَناط الأخوة في قول رسول اللهِ ﷺ : « أن تحبّ لأخِيك ما تُحبُّ لِنفسِك » : ليس المرادُ بأخيك أخوةُ النسبِ ، وإنّما الأخوةُ في الوطنِ الّذي يجمعُ غير المسلمين ؛ لأنَّ غيرَ المسلِمين الذين بَيْننا لَه ما لنا وعليهم ما علينا . ونجدُ في حديثِ رسُول الله صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ : « من غشّنا فليس منّا » وفي روايةٍ : منْ غشَّ أي ارتكبَ جريمةَ الغشِّ ، وكلّ ما حرّمه اللهُ على المسلِمِ مِن إيذاءٍ لأخيهِ المسلم حرمه عليْهِ أيضًا مِن إيذاء غيرِ المسلِمين الذين بيننا ، لدخولِه في قولِه عليْه السّلامِ « لَهم ما لنا وعليهم ما علينا » دماؤهم حرامٌ ، وأموالهم حرامٌ وأعراضُهم حرامٌ وغشّهم حرامٌ ، والغدرُ بِهمْ حرامٌ ، والكذبُ عليْهم حرام وشهادةُ الزور عليهم والحيدةُ فِي القضاءِ والقمع والظلم ، وهكذا كلما توغلتُ

فِي هذا قلتُ فِي نفسِي : لو قرأ هذه غير المسلمين لطالبوا بِه لأنه هو الخير للناس »[1]

وبهذا يضع الشيخُ على عاتقِ علماءِ الأمة ، وعلى المسلمين جميعًا غيرَ قليلٍ مِن مسؤولية نشوبِ الملاحاة بيْن المسلمين وغيرِهم ، من أنّهم لم يُحسنوا تقديم الحقيقة الإسلامية في هذا الباب ، وأن الإسلام جاء رحمة للناسِ كافة ، فمن لم يدخله اتخذ الإسلامُ منه موقف المُسالمَةِ له ، والمُدافعةَ عنه إنْ ظُلِمَ .

ويقُول : « وأكرّرُ أنّ كلّ ما يَجبُ أن يكون بيْن المُسلمِ والمسلمِ من تنفيس الكُربةِ ، وتيسيرِ العُسرة ، ومدّ يدِ العونِ هُو قائمٌ بيْن المسلِمِ وغيرالمسلِمِ مِن الذين يَعيشُونَ مَعنا نُساعدُهم ويُساعدونَنا ، ونُعينهم ويُعينُونا ، ونمدُّ أيدِيَنا إليْهم ، ويمدّون أيديَهم إلينا ؛ لأنّ الله تعالى أخبرَنا بأنَّ لهم مالنا وعليهم ماعليْنا ، ولأنّ رسُول الله ﷺ أمَرنا بِمكارمِ الأخلاقِ ، ومَكارِمُ الأخلاق ليستْ انتقائيّة ، ولو كانت انتقائية لما كانت مكارم أخلاق .

والإسلامُ بريءٌ براءةً كاملَةً من هذا الإجرامِ الذي يستبيح أموالهم ، أو يحرقُ بِيوتهم ، أو يفزّع آمنهم ، هذه عصابات إجرامِية ليس لها أَيّ سندٍ مِن دينِ الله ، وأظنّها من إعدادِ أعداءِ الإسلامِ الذين يريدون تشويه وجهه الأنور »[2]

ويقُول الشّيخُ : « دفعُ الظّلمِ عن المظلوم إذا لم يوجبه الدّين أوجبته المَروءة ، ولا يجوزُ لكرامِ النَّاسِ أن يرَوا ظلمًا يقعُ على فريقٍ مِن النَّاسِ ، وهم يتفرَّجون مهما كان الخِلافُ بيْنهم وبيْن الفريقِ الذي يُنكّلُ بِه ، ويُقمعُ ويقهرُ وتلفّق له التُّهم ؛ لأنَّ أحرارَ الرّجالِ لهم نهجٌ فِي الحياةِ غير نهجِ أهل النَّذالةِ والوطن الحُرّ هو ذاتُه يأنفُ القمعَ والقهرَ ؛ لأنَّ ذلك لا يليقُ بتاريخِه ،

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ١/١٠ .
(٢) المرجع السابق : ١/١١-١٢ .

والمسؤول الَّذي هوأهل للمسؤولية لا يرضَى بأن يُهين فريقًا من أبناءِ الوطنِ فضلاً عن استِباحةِ الدّماءِ والإهانةِ . . . » [1]

وهُو يُؤكّد حقَّ المواطنة ، حين يَعرضُ لتقويم مفهوم مُصطلح « الرّعية » وهو مصطلح نبويّ كريم . (كلّكمْ رَاعٍ وكُلّكمْ مَسْؤولٌ عَن رَعِيّتِه) ومصطلح « أهل الذّمّة » كذلك مصطلح نبويّ[2] هذان الْمصطلحان قد أسيئ فهمُهما في العرفِ الثقافيّ والسّياسيّ والإعلاميّ ، حتى بات استعمالهما مثارَ تشاجر وتسفيه وتخوين . . .

يقُول شيخنا : « كلمة » الرَّعية والرّاعي « من الكلمات الَّتي كثرتْ فِي كلام رسُول الله ﷺ ، ولها معنَى كريمٌ جدًّا ، ونبيل ، وزاكٍ وطاهر ، ولكنها كُدّرتْ لَمَّا جرتْ فِي لسانِ مَنْ كانوا يُخاطبُون الملوكَ فِي شأن الرّعية . . .

فُهم من كلمة « رعيّة » مَعنًى الإهانةِ وأنّها تساقُ ، وأن الرَّاعِي يُصرّفها حيثُ يشاءُ ، وهذا خطأ وإفسادٌ للمعنَى النَّبيل الّذي جاءتْ بِه الكلمةُ علَى لسانِ المُبلغ عن ربّه صلوات الله وسلامه عليه ؛ لأنّ الرَّاعِي هو القائمُ علَى خدمة الرَّعيّة ، وهو المسْؤول الأوّلُ عن أشياءَ لا تتيسّر إلا له ، ولا يقدر عليْها إلا هو . . .

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم ١٧/١ .

(٢) روى مسلم في كتاب فضائل الصّحابة من صَحيحِهِ بسَنَدِه عَنْ أَبِى ذَرٍّ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :

« إِنَّكُمْ سَتَفْتَحُونَ مِصْرَ وَهِىَ أَرْضٌ يُسَمَّى فِيهَا الْقِيرَاطُ فَإِذَا فَتَحْتُمُوهَا فَأَحْسِنُوا إِلَى أَهْلِهَا فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحِمًا ». أو قَالَ « ذِمَّةً وَصِهْرًا فَإِذَا رَأَيْتَ رَجُلَيْنِ يَخْتَصِمَانِ فِيهَا فِى مَوْضِعِ لَبِنَةٍ فَاخْرُجْ مِنْهَا ». قَالَ فَرَأَيْتُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ شُرَحْبِيلَ بْنِ حَسَنَةَ وَأَخَاهُ رَبِيعَةَ يَخْتَصِمَانِ فِى مَوْضِعِ لَبِنَةٍ فَخَرَجْتُ مِنْهَا . .

فالرَّعايةُ مسْؤوليةٌ والرَّاعِي مسْؤولٌ والمرعيُّ مَسْؤولٌ . . . ليْس فيها معنَى التّرتيب الطَّبقيّ ، وإنّما فِيها معنَى ترتيبِ المسْؤليّات .

وهذا جيّدٌ جدًّا ، وتكديرُهُ ليْسَ لَهُ مُسْتندٌ مِن الفَهمِ ، وإنّما هِي ضرباتٌ إعلاميّة .

ومثلُ هذا كلمة « الذّمَّة » الّتي جاءتْ فِي كلامِ سيّدنا رسُول الله ﷺ ، وشَاعتْ فِي كتب الفقهِ ، وأطلقتْ علَى غيرِ المُسلمين الذين يَعِيشُون بيْن الْمسْلمين .

شُوّهتْ هذه الكلمةُ الكريمةُ فِي الأيامِ الأخيرةِ ، واتهمَتْ بأنّها تنْفِي حقّ « المُواطِنة » وتجعلُ أصحابَها طبقةً دون طبقةِ الأكثرية فِي الحقوق ، وهذا كلّه باطلٌ . ويُرادُ بِهِ التّشْويهُ والتّشْويشُ علَى أصُولٍ فقهيّةٍ جلِيلةٍ جدًّا ؛ لأنَّ هذه الحقوقَ مضمونةٌ بقولِه عَلَيْهِ السّلام « لَهُمْ ما لنا ، وعليْهم ما عَلَيْنا »

وهي كلمةٌ تكادُ تنصُّ نصًّا مباشرًا على ما نسميه حقّ « المواطنة » ؛ لأنّه لا معنى للمواطَنةِ إلا أنْ يكونَ النَّاسُ شُركاءَ فِي هذا الوطنِ كلّ فردٍ فِيهِ علَيْهِ ما علَى غَيْرِه لا يزيدُ ، ولا ينقص وله ما لِغيْرِه لا يزيدُ ولا ينقصُ ، ثُم يُضَاف لِهذه الجماعةِ الّتي تعيشُ بيْن المُسلمين ، وليْسَتْ منهم عهدٌ هو زيادةٌ لَهمْ حتّى لا يسْتفزّهمْ جاهِلٌ أو أحمق أو متعصّبٌ . هذا العهدُ زيدَ فِي احترامِه ومهابتِه وتقديرِه ، فسُمِّيَ « ذمة الله ورسُوله » ، فمن خاشنهم أو قاربهمْ بسُوءٍ فقد اعتدَى علَى عهدِ الله ورسُولِه واعتدَى على ذمة الله ورسُولِه ﷺ »[1] .

هذا بيان للناس وفصل في القضيةِ لا يحتاج أحدٌ من بعدِه إلى أن يبيّن له موقف الإسلام والمسلمين من « المواطنة » إلاّ إذا أُريد الشَّغبُ على الإسلام والمسلمين . وبرغم من ذلك ولو كتب هذا البيان على كلِّ جدارٍ في مصرَ

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ١٩/١، ٢٠

ستظلّ شرذمة يتخذون مِن المسألة وقوداً لاستعار نار الشّبهات المختلقة التي يريدون بها إحراقَ كلّ ما له علاقة بالإسلامِ والمسلمين .

وكل ما يشْغبُ به أولئك هو ممّا نبت في عقول أحبار الفرق الضالة (الاثنتين والسبعين فرقة) وسدنتهم وأغرارهم فشغبوا بها ، والتي قوّضها أهل السنة وما تزال حاضرة في أسفار أهل السنة ولكنَّ الفَسَدَة ينتزعون الشبهاتِ وينفثُونها في مسامعِ النَّاسِ في وسائلِ الإعلام ، ويوهمونهم أنها شبهات هي بِنْتُ لَيْلتِها ، وأنَّها من بنات أفكارِهم وأن علماء أهل السّنة الآن لا يملكون الرَّدَّ عليها ، لأنَّ الفسدة على يقينٍ منْ أنَّ الجمهرة الكاثرة من النَّاسِ بيْنها وبين أسفارِ أهل العلم قطيعة وإذا رأيت من لا يقرأ ببصيرة نافذة ووعى محيط وحرية في التفكير فاعلمنَّ أنَّه المستطعم الضلالة المستعذبُ المذَلَّة الرّاغبُ عن نعمة الله تعالى عليه : «التعليم بالقلم» الذي هو رمزُ كرامة الآدميّ . فذلك الذي لا يشارك الإنسان فيه أحدٌ من العالمين .

ما رأيت إنسانا ينفرعن القراءة المثمرة تسنّما مدارج العزَّة والكرامة إلاّ وأيقنت أنه المبغض انتسابه إلى أبي البشرية سيدنا « آدم» عليه السَّلام ، فلسان حاله يجهر بالبراءة من هذا الانتساب .

* * *

القضِية الخامسة
الموقف من الآخر

الآخر هو ذلك الذي يتخذ من أصولنا عقيدة وشريعة وخلقًا ورسالة حياتنا مسلمين موقفًا معانداً أو وقف ملاحاة وتضليل ومحاجزة ، وإن كان من بني جلدتنا ونسبنا ووطننا .

مناط العلّة هو الملاحاةُ للأصولِ والضَّوابطِ ، وليس الاختلاف عنا في العقيدة أو الوطن أو الجنس ، فكلنا لآدم وآدم من تراب . أو الاختلاف معنا في الفروع وفهم النّصوص ، فذلك الاختلافُ في الفهم ضُرورة تنوّع وتعدّد لا تخلو منه الحياة

هذا الآخر قد يكون ولدك ، وقد يكون زوجك ، وقد يكون رئيسك . . . المهم أنه متخذ الملاحاة لأصولنا وضوابط حركتنا لتحقيق مراد الله الشرعي منها رسالة حياتِه .

وهذا الآخر قد أنبأ رسُول الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ بتكاثره فيما رواه أبو داود من كتاب (الملاحم) من سُننه بسنده عَنْ ثَوْبَانَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « يُوشِكُ الأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا » . فَقَالَ قَائِلٌ وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ قَالَ « بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ وَلَيَنْزِعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِى قُلُوبِكُمُ الْوَهَنَ » . فَقَالَ قَائِلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الْوَهَنُ قَالَ « حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ » . (صححه الألباني)

في هذا الإنباء حفزٌ إلى وجوب اتخاذ العدة لصدِّه ، وإبطال أفاعيله ، وهذا التّداعي من الأممِ علينا هو الملاحاة والمحاجزة عن رسالتنا في تحقيق سلطان الإسلام على حركة الحياة إلى تحقيق مراد الله الشرعي في هذه الدّنيا .

وفي كلمة التَّداعي بيان لعظيم تعاونهم وتعاضدهم في هذا الأمر ، وأنَّ كلا يدعو الآخر ، ويهيئ له السّبل ويوفر له الأدوات للقيام بهذه الملاحاة . وهو ما تبصره عينك وتسمعه أذنك صباح مساء .

وحقٌّ على كلِّ مُسلم أن يتداعَى للوقوفِ في وجه تداعيهم ومن ثمَّ كان في مقابل هذا التَّداعي على الأمّة من هذا الآخر قيامُ الشَّيخِ في وجه ذلك الآخر بكلمتِه (النّور) يكشفُ بها لطلابِ العلم وطلاب الحقّ ونَصَره واقع ذلك الآخر ، ومآل مداراتِه ومسالمتِه ومهادنتِه ، ويقطع بكلمته (السَّيف) كلّ سببٍ يمدُّه ذلك الآخرُ لتحقيق رسالته الإبليسيّة .

والشّيخ جدّ شديدٍ قلبا وعقلاً ولسانًا على هذا الآخر ، فبمقدار ما ترى من عطفه ورأفته على كلّ مسلم وإن كان عاصيًا ، وترى حدَبه على أن نناصر حقّ منْ كان غيرَ مسلم مسالمًا لا يناصبُ الأمَّة المُسلمة العداء . تجدُ شدته وصلابته في التَّصدّي لهذا الآخر . وبمقدارِ ما تجدُ الشَّيخَ حفيًّا بتوكيدِ حقوق المواطنين مسلمين وغير مسلمين وتقريرها والدَّعوة إلى الحفاظِ عليها ، وإلى بذلها لهم قبل أن يطلبوها تجده جدّ فتيّ في توكيد وجوب مناهضة المتواطئين وإن خرجوا علينا وقد بلغت لحاهم إلى منتصف صدورهم ، وإن رفعوا في أيمانهم كتاب الله تعالى ، وإن أقاموا معتكفين في بيوتِ الله تعالى من يسمون أنفسهم بالجماعات الإسلامية ماداموا سائرين في ملاحاة الأمة وتكفيرها وتفجيرها . والكتاب ملآنٌ بصور هذا التصدّي لهذا الآخر على تعدد فرقِه :

- فرقة الذين يقتلون النّاس ليدخلوهم بزعمهم الجنة وفق فهمهم الضّليل لكتابِ الله تعالى وسنةِ رسُوله صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ .

- وفرقة الذين يقتلون النّاس ليدخلوهم بزعمهم الدّيموقراطية كما يحبونها ، وحين تكون في مصلحتهم وفي تحقيق طموحاتهم وأضغاث أحلامهم .
- وفرقة الذين يفسدون على النّاس حياتهم ليدخلوهم في زعمهم رياض الليبراليّة : التحرر من العبودية لله ربّ العالمين . وليس التّحرر من العبودية للسّلطان ومن العبودية للشهوات ، ومن العبودية للشيطان . . . .

والشيخ وهو يشتد على هذا الآخر ينطلق من الوفاء بحق الإنسان كلّ الإنسان عليْه ، الشيخ جدٌّ حفيٌ بالأخوة الإنسانية ، ولا يرى الاختلاف في العقيدة بمبطل حقَّ الأخوة في الإنسانية ، وإذا ما كان رسُول الله ﷺ قد أمرنا بنصرة الأخ ظالمًا أو مظلومًا فيما رواه البخاري في كتاب (المظالم) من صحيحه بسنده عَنْ حُمَيْدٍ عَنْ أَنَسٍ ـ رضى الله عنه ـ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا» . قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا نَنْصُرُهُ مَظْلُومًا ، فَكَيْفَ نَنْصُرُهُ ظَالِمًا قَالَ «تَأْخُذُ فَوْقَ يَدَيْهِ».

وفي رواية له في الباب بسنده عن حفيد أنس: عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِى بَكْرِ بْنِ أَنَسٍ عَنْ أَنَسٍ ـ رضى الله عنه ـ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا» . فَقَالَ رَجُلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا ، أَفَرَأَيْتَ إِذَا كَانَ ظَالِمًا كَيْفَ أَنْصُرُهُ قَالَ «تَحْجُزُهُ أَوْ تَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ»

هذه الرواية أكثر تبينًا منْ سابقتها ، وأنت تجدُ في هذا البيان النبوي توكيداً لحقّ الظالم على الآخرين على الرغم مِن أنه ظالمٌ .

حقه عليْهم أن يُحاجزوه عن أن يعمد إلى ظُلِم أحدٍ ، فإن تركه لما يعتلج في نفسِه من الرغبةِ فِي أن يوقعَ الظلمَ علَى منْ هو دونَه هو في نفسِه ظلمٌ له وإسلامٌ للشيطانِ ولنفسِه ، وقد نهينا عَن أن نسْلمه . .

روى الشّيخان البخاريّ في كتاب «المظالم» و«الإكراه» ومسلمُ فِي كتاب

«البرّ والصّلةِ والأدب» بسندهما عَنْ ابْنِ شِهَابٍ أَنَّ سَالِمًا أَخْبَرَهُ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ ابْنَ عُمَرَ ـ رضى الله عنهما ـ أَخْبَرَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ «الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يُسْلِمُهُ ، وَمَنْ كَانَ فِى حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِى حَاجَتِهِ ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» . في هذا الحديث تقريرٌ لكلية إذا ما جعلت حاضرة في وعينا ومسْلكنا فِي الحياةِ كان ذلك المحقق لهذه الحياة سلامَها الاجتماعيّ الذي تفتقده صَباح مساء ، فلا يكاد يأتي ليلُ يومٍ إلا وكانت الحياةُ قد انتقصت من سلامِها الذي كان لها في الليلة السابقتها . وكأنَّ الشمسَ وهي تغيب كلَّ يومٍ تَختلسُ من سلام الحياةِ الاجتماعيّ كلّ يومٍ قدراً منه .

وهكذا يتناقصُ السلام الاجتماعيّ في الحياة كلّ يومٍ ، ولن يتحقّق حفظه إلا بأن نقيم هذا الحديثَ الكريم في وعينا ومسلكنا في هذه الحياة .

وهذا يؤكّد أنَّ القيمةَ العُليا للإسلام هي «العدل» المطلق ، وهذه القيمَة العليا للإسلامِ تجمعُ كلَّ القيم العليا لأيّ تصور بشري للمذاهبِ والفلسفات التي يخترعها الإنسان لنفسِه ، فالقيمة العليا لما يُسمونه «الليبراليّة» والتي يقتلوننَا ليحققوها فينا القيمة العليا فيها هي الحرية ، وهي عند من يقُولون بالليبرالية حريَّة غيرمسؤولة ، وغيرُ منضبطة ، قد تصل إلى حد تأباه الفطرة ، والعقل المعافَى ، على نحوما تراه من القول بزواج المثليين وحق الإجهاض في أي مرحلة من حياة الجنين . . . . فهذه حريّة غير مسْؤولة ، وهي تلحقُ الإضرار بالنّاسِ وبمن يمارسُها أيضًا .

والحرية التي يتضمنها «العدل» الذي هو القيمة العليا للإسلام حرية منضبطة مسؤولة ، لها حدودٌ ولها وظيفة تعميرية لا تخريبية . حريةٌ تخرج الإنسان من عبوديته للآخرين ، وعبوديته لشهواتِه وشُبهاته وشيطانه ونفسِه وعقلِه إلى العبودية المطلقة لِخالقه سُبْحانَه وَتَعالَى ، فتتسع حريته اتساعًا نافعًا

منضبطًا ، ولذا كان من كليات الإسلام « لا ضرر ولا ضرار » (ابن ماجه في كتاب الأحكام من سننه) ، و« وَالْمُسْلِمُونَ عَلَى شُرُوطِهِمْ إِلاَّ شَرْطًا حَرَّمَ حَلاَلاً أَوْ أَحَلَّ حَرَامًا » . (الترمذي : الأحكام)

وإذا ما كانت « المساواة » هي القيمة العليا لما يُسمى بـ« الاشتراكية » فإن هذه المساواة في « الاشتراكية » مساواة غير حقيقيّة ، لأنّها لا تعتد بالفروق الخَلقيّة والوظيفية بيْن النَّاسِ ، ممّا يبطلُ العدلَ ، ويوقع الظلمَ ، كيف يسوَّى بيْن من تفاوتوا في إمكانتهم الخلقيّة الفطريّة التي خلقهم الله تعالَى عليْها وكذلك بيْن وظائفهم في الحَياة وما يقُومون بِه؟

لكلّ إنسانٍ أيًّا كان جنسُه وعمرُه وعلمُه وعملُه ووطنُه حَقٌّ مرتبطُ بخصُوصياته لا بدّ من أن يُوفَّاه غيرَ منقوصٍ في قدرٍ أو نوعٍ ، أو هيئة (كيف) أووقتٍ . . وعليْه واجِبٌ مرتبطٌ بِخُصُوصيّاتِه عليْه أن يؤدِّيه غير منْقُوصٍ . . . هذه هِي المُساواة الحقيقيَّة الَّتي جاء بِها الإسلامُ : وهي عيْنُ العَدل الَّذي هُو القيمةُ العُليا في الإسلامِ .

الإسلام هودين « العدل » المطلق ، وهوالمناهضُ لكل صُور الظلم : ومستوياتِه ومناهضٌ لأن يظلم أيّ مخلوقٍ في هذه الحياةِ . مسلمًا أو كافرًا أوحيوانًا .

ذلك أنّ الله سُبْحانَه وَبِحمدِه قد حرم الظلم على نفسِه وجعله بيْن عبادِه محرّما . روى مسلمٌ في كتاب « البرّ والصّلةِ والأدَب » مِنْ صَحِيحِه بِسندِه عَنْ أَبِى إِدْرِيسَ الْخَوْلاَنِىِّ عَنْ أَبِى ذَرٍّ عَنِ النَّبِىِّ ﷺ فِيمَا رَوَى عَنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ « يَا عِبَادِى إِنِّى حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِى وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلاَ تَظَالَمُوا » .

فليس الأخ هنا الأخَ في النّسب أو الدّين فحسبُ ، بل هوأعم من ذلك ، وليس في البيان ما يصرف العام إلى التخصيص ، فهذا الآخرُ الذي أضلَّه

الشَّيطانُ على علمٍ من حقّه علينا أن ننصرَه على شيطانِه بأن نأخذ على يده ، وألاّ ندعه يفعل ما يشاءُ ، فإذا ما وجد من يتصدي لظلمه نفسَه وغيرَه ربّما كفَّ عن ذلك ، فوقى الله تعالى الأمة شرَّه .

فهذه الشدّة من الشيخ في شأن الآخرِ لها وجهُ الوفاء بحق هذا الآخر عليْه وهذا من رقة الشيخ ورأفته بالنَّاسِ كلّ النَّاس ؛ لأنَّه يلتقي به في نسبه إلى أبينا آدم عليه السّلام ، فحقُّ هذه الرّحم أن يشتدّ ليحاجز من يشتدّ عليه عمّا يُضيرُه ، ولِيدفعه إلى ما ينفعه .

* * *

أول ما يلقاك من الشيخ في كتابه في هذه القضية قوله في الصفحة الأولى :

« اللهُمّ إني أعوذ بك أنْ ألقاك وفِي عنقِي بيْعةٌ لِمنْ يرفضُ الحكمَ بما أنزلتْ ، ولمنْ لُوثت يدهُ بدماءِ أهلِ الشّهادتين[1].

اللهم إني أعوذ بك أنْ ألقاكَ وفِي عنقِي بيعة لِمن إذا حدّثَ كذب ، وإذا عاهدَ غدرَ ، وإذا ملك ظلم ، وإذا خاصم فجر .

اللهم لا تسلط شرارنا على خيارنا وارفع مقتك وغضبك عنا . اللهم آمين ».

هذه الكلمات هي أول ما يلقاك به الشيخ . أوّل ما يغزو به قلبك ووعيك ، فإن كنت ممّن يُحسن التلقي علمتَ أنك قائم بين يدي من . علمتَ مذهبَ الشّيخ وموقفه من نصرةِ الحق بالحقِّ وإزهاق الباطلِ بالحقّ . وعلمتَ كيف يكونُ الرّجال صدَّاحين بكلمة الحقّ في وجهِ الطاغوتِ ، فإنْ كنتَ ممّن يقرأُ

---

(١) تبصر حكمة الشيخ في قوله (لمن يرفض الحكم) دون أن يقول (لمن لم يحكم) ذلك أن الرفض كفر ، وعدم الحكم لشبهة دنيوية أو حرص على أمرٍ وخوف من عتيٍّ ليس كفرًا وإنما هو كبيرة ينصح صاحبها ولا يخرج عليه بالسيف .

ويفهم بكلّ ما تحمله كلمة (يفهم) من معنى عرفت موقف الشّيخِ من الآخر الظلوم .

ومن كان في عمره وعلمه ومقامه في أهلِ العلم لا يقُول هذا إلا وهو على يقين من أنّها الكلمة الحقّ التي يحب أن يلقَى الله سبحانه وتعالى بها .

هكذا يلقاك الشّيخُ أوّل ما يلقاك بكلمة هي النّور لك والسيف في صدرفتنةِ كلّ مارِدٍ عنيد .

* * *

obeikandl.com

القَضِيّة السّادسَة
الموقِفُ مِن الحاكم مناصَرةً ومعارضَة

كانتْ ثُلة من أدعياءِ السلفية ينغقون في النّاس بحرمة الخروج على الحاكم الظالمِ ، يقرؤون على النّاس من بيان رسُول الله ﷺ ما لم يفقهوا مخرج القول ومراميه وسياقته يقرؤون على الناس نَحو ما رواه الإمام مسلمٌ في كتاب (الإمارة) من صَحيحه بسنده عن حُذَيْفَة بْن الْيَمَانِ أنه قال « قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا كُنَّا بِشَرٍّ فَجَاءَ اللَّهُ بِخَيْرٍ فَنَحْنُ فِيهِ فَهَلْ مِنْ وَرَاءِ هَذَا الْخَيْرِ شَرٌّ قَالَ نَعَمْ . قُلْتُ هَلْ وَرَاءَ ذَلِكَ الشَّرِّ خَيْرٌ قَالَ «نَعَمْ» . قُلْتُ فَهَلْ وَرَاءَ ذَلِكَ الْخَيْرِ شَرٌّ قَالَ «نَعَمْ» . قُلْتُ كَيْفَ قَالَ « يَكُونُ بَعْدِى أَئِمَّةٌ لاَ يَهْتَدُونَ بِهُدَاىَ وَلاَ يَسْتَنُّونَ بِسُنَّتِى وَسَيَقُومُ فِيهِمْ رِجَالٌ قُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الشَّيَاطِينِ فِى جُثْمَانِ إِنْسٍ» . قَالَ قُلْتُ كَيْفَ أَصْنَعُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ أَدْرَكْتُ ذَلِكَ قَالَ « تَسْمَعُ وَتُطِيعُ لِلأَمِيرِ وَإِنْ ضُرِبَ ظَهْرُكَ وَأُخِذَ مَالُكَ فَاسْمَعْ وَأَطِعْ » .

ويسمع الأمراء والولاة هذا ، فيجدون فيه مايعصمهم من معارضةِ شعوبهم ، لأنّ الرسُول صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ نهاهم عن معارضة الحكام ، وإن بالغوا في ظلمهم بل بلغوا أنهم لا يهتدون بهدي النبي ﷺ ولا يستنون بسنته قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنس . هكذا يعرضون بيان رسول الله ﷺ ، ولا يقرؤون هذا في صُحبة ما رواه النسائي في كتاب (البيعة) بسنده عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ أَنَّ رَجُلاً سَأَلَ النَّبِىَّ ﷺ وَقَدْ وَضَعَ رِجْلَهُ فِى الْغَرْزِ أَىُّ الْجِهَادِ أَفْضَلُ قَالَ « كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ » . ورواه ابن ماجه في (الفتن) من سننه ، ورواه أحمد في مسنده .

ولا يقرؤون على النَّاس ما رواه الحاكم في المستدرك ، والطبراني في المعجم الأوسط والسيوطي في الجامع الصغير من حديث ابن عبّاس رضي الله عنهما قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَمْزَةُ ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، وَرَجُلٌ قَامَ إِلَى إِمَامٍ جَائِرٍ ، فَنَهَاهُ وَأَمَرَهُ ، فَقَتَلَهُ » (النص للطبراني في الأوسط ـ حديث رقم : ٤٠٧٩)[١]

كيف يكون أفضلُ الجهاد كلمةَ حقّ عند سلطان جائر ، وكيف يكون سيد الشهداء من قام آمرًا وناهيًا إمامًا جائرًا ، والرّسول صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ أمر بالاستماع والطاعة للسلطان الظالم الجائر الذي لا يهتدي بهديه ﷺ ولا يستن بسنته وقلبه قلب الشيطان؟

أليس من أمانة الفقه والدّعوة أن يُبيّن للنَّاس ما بين القولين من اتفاق وافتراق؟

أمن الحكمةِ أن يكتفى بذكر ما يتخذه الظلمة سندًا في منع شعوبهم من معارضتهم ؟

أليس في الاكتفاء بذكر حديث حذيفة رضي الله عنه وحده ما يُشرّعُ الاستبداد والظلم ؟ أمثل هذا من هدي النبوة ؟ أليس مثل هذا ممَّا يسيئ إلى الإسلام ؟ من ذا الذي يرضى ممّن ولد كافرًا أن يدخلَ في دين ينهاه عن مقاومة ظالميه ، وأن يبذل السَّمع والطَّاعة لمن يتخذ ظلم النَّاس دينا ومنهاج حياة ؟!!!

والعجبُ أنّ أولئك الذين يمنعون الناس من الاعتراض على من يظلمهم لا يذكرون للنَّاس مقالة أبي بكر الصديق في أول خطبة له بعد توليه الخلافة ،

---

(١) صححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة . حديث رقم (٣٧٤) وفي صَحيح الجامعِ الصغير وزياداته . حديث رقم (٣٦٧٥) وفي صَحيح الترغيب والترهيب . حديث رقم (٢٣٠٨) .

ولا يذكرون مقالة الصحابيّ لعمربن الخطاب رضي اللهُ عنه : قومناك بسيوفنا ، وثناء عمر على هذا الموقف المعارض . ؟

بيان الأمر في حديثِ حذيفة بن اليمان رضي اللهُ عنه : « تَسْمَعُ وَتُطِيعُ لِلأَمِيرِ وَإِنْ ضُرِبَ ظَهْرُكَ وَأُخِذَ مَالُكَ فَاسْمَعْ وَأَطِعْ » . مناطه في تعيين مفعول تسمع وتطيع ، أي تسمع أمره لك بالمعروف ونهيه لك عن المنكر ، وتطيعه في ذلك وإن كان قد وقع منه عليك ظلمٌ : ضرب ظهرك وأخذ مالك ، فهذا الظلم لا يمنعك من أن تطيعَ أمره لك بالمعروفِ ونهيَه لك عن المنكرِ . لا تجعل هذا الظلم سببًا في عصيانِه في كلِّ حال أمرك فيه ونهاك . افصل بين الحالين :

حال ظلمه لك وحال أمره لك بالمعروف ونهيه لك عن المنكر .

الرَّسول ﷺ يُبين له منهج الفصلِ بين الأحوال ، ووجوب اتخاذ الموقف الحقّ مع كلِّ حال . إنْ أَمرَ بمعروف ونهى عن المنكر وجبَ السَّمع والطَّاعة لا لشخصه ، ولكن لما أمر به من معروفٍ ونهى عنه من منكرٍ ، أيّا كان موقفه منك ظلمك أو أحسَن إليْك .

وإن أمرك بمنكرٍ ونهاك عن معروف ، فلا تطع أمره هذا ولا تطع نهيه هذا ، وإن كان محسنًا إليك لم يقع منه عليك نزيرٌ من ظلم . وإن كان أباك .

والأمر الكليّ الضَّابط في هذا ما رواه الإمامُ مسلم في كتاب « الإمارة » من صَحيحِه بسندِه عَنْ سَعْدِ بْنِ عُبَيْدَةَ عَنْ أَبِى عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ عَلِىٍّ رَضِيَ اللهُ عَنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال « لاَ طَاعَةَ فِى مَعْصِيَةِ اللَّهِ إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِى الْمَعْرُوفِ » .

وفي مسند أحمد بسنده عَنِ الْقَاسِمِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ النَّبِىَّ ﷺ قَالَ « كَيْفَ بِكَ يَا عَبْدَ اللَّهِ إِذَا كَانَ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ يُضَيِّعُونَ السُّنَّةَ وَيُؤَخِّرُونَ الصَّلاَةَ عَنْ مِيقَاتِهَا » . قَالَ كَيْفَ تَأْمُرُنِى يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ « تَسْأَلُنِى ابْنَ أُمِّ عَبْدٍ كَيْفَ تَفْعَلُ لاَ طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِى مَعْصِيَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ».

وفي حديث آخر فيه بسنده عن هِشَامٍ عَنْ مُحَمَّدٍ قَالَ : جَاءَ رَجُلٌ إِلَى عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ ، وَنَحْنُ عِنْدَهُ ، فَقَالَ : اسْتُعْمِلَ الْحَكَمُ بْنُ عَمْرٍو الْغِفَارِيُّ عَلَى خُرَاسَانَ . فَتَمَنَّاهُ عِمْرَانُ ، حَتَّى قَالَ لَهُ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ : أَلاَ نَدْعُوهُ لَكَ؟ فَقَالَ لَهُ : لاَ . ثُمَّ قَامَ عِمْرَانُ ، فَلَقِيَهُ بَيْنَ النَّاسِ ، فَقَالَ عِمْرَانُ : إِنَّكَ قَدْ وُلِّيتَ أَمْراً مِنْ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ عَظِيماً ، ثُمَّ أَمَرَهُ ، وَنَهَاهُ ، وَوَعَظَهُ ، ثُمَّ قَالَ هَلْ تَذْكُرُ يَوْمَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لاَ طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِى مَعْصِيَةِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى » قَالَ الْحَكَمُ : نَعَمْ . قَالَ عِمْرَانُ : اللَّهُ أَكْبَرُ .

وفي ضوء هذا يفهم ما رواه مسلمٌ في كتاب (الإمارة) بسنده عن عَوْفِ ابْنِ مَالِكٍ الأَشْجَعِىَّ يَقُولُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ « خِيَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونَكُمْ وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ وَشِرَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ » . قَالُوا قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلاَ نُنَابِذُهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ قَالَ « لاَ مَا أَقَامُوا فِيكُمُ الصَّلاَةَ لاَ مَا أَقَامُوا فِيكُمُ الصَّلاَةَ أَلاَ مَنْ وَلِىَ عَلَيْهِ وَالٍ فَرَآهُ يَأْتِى شَيْئًا مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ فَلْيَكْرَهْ مَا يَأْتِى مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ وَلاَ يَنْزِعَنَّ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ » .

قوله ﷺ : « فَرَآهُ يَأْتِى شَيْئًا مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ فَلْيَكْرَهْ مَا يَأْتِى مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ وَلاَ يَنْزِعَنَّ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ » أي عليه أن يفصل بيْن حالين : حال إتيانه ما يكره اللهُ تعالى وحال إتيانه ما لا يكره الله تعالى .

في الأولى يسخطُ فعله المنكر ولا يعصاه إن أمره بمعروف .

وفي الأخرى يرضَى فعله ، ولا يطيعُه حال أمرِه بما يسخط الله تعالى .

هذه المفاصلة هي المنهج الحق .

وهي تقرّر مبدأ معارضة المنكر من أيّ إنسان ومساندة المعروف من أيّ إنسان دون تعميم حالٍ على حالٍ .

فقوله (لا تنزعن يداً من طاعة) ليس معناه لا تنزعن يداً من طاعته في كلّ حال ، بل لا تنزعن يده من طاعته في المعروف ، فهذا من العام الّذي خُصّص بمخصّصٍ مستقلٍّ ، وهوبابٌ وسيع عميق دقيق فِي أصول فقه بيان الوحي .

فالقضية لا لبس فيها البتة . إنّ مبدأ معارضة المنكر والخروج عن طاعة السلطان فيه أمرٌ لا لبس فيه ولا توقف . ومن ذكر بعضًا من بيان النبوة في هذا الباب دون بعض فقد خان رسُول الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ ، وخان الأمّةّ ، ومن فعل فقد خسر .

روى البخاري في كتاب «الأحكام» من صَحيحه بسنده عَنْ هِشَامٍ عَنِ الْحَسَنِ قَالَ أَتَيْنَا مَعْقِلَ بْنَ يَسَارٍ نَعُودُهُ فَدَخَلَ عُبَيْدُ اللَّهِ فَقَالَ لَهُ مَعْقِلٌ أُحَدِّثُكَ حَدِيثًا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ «مَا مِنْ وَالٍ يَلِي رَعِيَّةً مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، فَيَمُوتُ وَهْوَ غَاشٌّ لَهُمْ ، إِلاَّ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ»

ورواه مسلم في كتاب (الإيمان) وكتاب (الإمارة) من حديث معقل بن يسار المزني ، وقد بينه شيخنا في شرحه .

العلماءُ والدُّعاة قد تولوا أمر العلم والدّعوة فمن ذكر بعضًا من القرآن أو السنة وأعرضَ عن بعضٍ عمدًا كان غاشًّا للأمة بل هو أشدُّ غِشًّا من السُّلطان.

الشيخُ يتخذ في هذه القضية موقفًا أسّسه على حسن الفقه لبيانِ النبوة الذي رسالته الأولى هي إصلاح الأمة والحياةِ كلها .

يقُول الشّيخ : «المعارضةُ الصّادقة المخلصة هي المرآة النّظيفة التي يَرَى فيها النِّظامُ نفسَه ، وعجيبٌ جدًّا أن نرى هذا الفكرَ السياسيّ المستنير قد ولد في لحظة ولادة الأمةِ الإسلامية سَاعةَ أن تولّى أمرها أبو بكر ؛ لأنه قال في السّطر الأول من خطابِه لمّا تولّى : «إنما أنا متّبعٌ ، ولستُ بِمبتدع» يريدُ أنه مطبق لِكتابِ الله وسنة رسُوله ﷺ ، وهذا هو الحكم بِما أنزل الله ، وهذا هو رأسُ

الدّين فِي قلبِ السياسةِ ثُم قال الصديق رضوان الله عليْه : إن رأيتموني على صَوابٍ فأعينوني ، وإن رأيتموني على خطإٍ ، فقوموني ، وكلمة « قوموني » فيها معنًى ليس في أن يقُول فنبهوني ، وكان عمرُ حاضرًا ، فاستقرتْ هذه الجملةُ الكريمةُ التي يحمّلُ فيها الصّدّيقُ الناسَ مِن حولِه أمانةَ المتابعةِ الواعية لسياسته ، فإذا رأوا خيرًا اجتمَعُوا حولَهُ ، وتعاونوا وتساندوا ، وإن رأوا خطأً وقفُوا ، وعارضُوا ؛ لأن هذه المعارضة من الدّفاعِ عن النّفسِ وعن الغيرِ .

ولمَّا تولّى عُمرُ رضوان الله عليه كان أوّل كلامٍ يقوله هي جملة أبي بكرٍ ، وفهم النّاس المراد ، وأنّه الوقوفُ فِي وجهِ خطإِ المسؤول الأول حماية للنّاسِ وقوّةً للدولةِ ، فقام رجلٌ فِي المسجد ، وسلّ سيفه ، وقال لِعمر والله لو رأيناك على خطإٍ لقوّمناك بسيوفنا ، فأدرك عمرُ أنّ الرّسالة وصلتْ ، وأنَّ المقصُودَ اليقظةُ الواعيةُ والمتابعةُ الصّادقةُ لِساسةِ البلادِ ، فهشَّ عمرُ ، وهو رجلُ الدّولةِ ، وقال : الحمدُ لله الّذي جعلَ مِن أمّةِ مُحمّدٍ مَن يُقوّمُ عُمرَ بحدّ السيفِ . . . » [1]

الذّي يجملُ أن تلتفتَ إليْه أنَّ أبا بكر الصّديق لو قال « فنبهوني » دون « فقوّموني » لظنّ ظانٌّ أنَّ أعلى درجاتِ المعارضة « التنبيه » ولا تتجاوزُ هذه المعارضة ، وإن لم يأخذ الوالي بها ، ولكنه قال « فقوموني » أي قوموني أولا بالتنبيه فإن أطعت فنعما ، وإن لم فتصاعدوا إلى ما هو أعلى .

وقول الصّحابي لعمر : « قوّمناك بسيوفِنا » أي قوَّمناك بكلِّ طريقٍ وإن اقتضَى الأمرُ أن نقوّمك بحدِّ السَّيفِ ، ولم يعترض عمرُعلى العبارة ، ولم يقلْ له لا يجوز الخروج على الحاكم بالسّيفِ ، فإنّ الخروج على الحاكم بالسَّيف قد يكون فرضًا إذا ما كان في بقائه هلاكٌ للأمة والدّين بأن كان الوالي خائنا لدِينه وقومِه ووطنِه ، عميلاً لأعداءِ الأمةِ وسلَّ السَّيف في وجه شعبِه ، فلا مكان

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ١/١٧، ١٨ .

هنا للمسالمةِ والملاحاة اللسانية والمعارضة الحنجرية ، لأن هذه المسالمة سيترتَّبُ عليها ضياعُ الدِّين والدَّولة والأمّة والوطن .

* * *

ومِن هذا ما كان من تذوقه ما رواه مسلم فِي كتاب «الإمارة» بسنده عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ زَوْجِ النَّبِىِّ ﷺ عَنِ النَّبِىِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ « إِنَّهُ يُسْتَعْمَلُ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ فَتَعْرِفُونَ وَتُنْكِرُونَ فَمَنْ كَرِهَ فَقَدْ بَرِئَ وَمَنْ أَنْكَرَ فَقَدْ سَلِمَ وَلَكِنْ مَنْ رَضِىَ وَتَابَعَ» . قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلاَ نُقَاتِلُهُمْ قَالَ « لاَ مَا صَلَّوْا» . أَىْ مَنْ كَرِهَ بِقَلْبِهِ وَأَنْكَرَ بِقَلْبِهِ .

تراه يستطعم بناء الفعل (يُستعمل) لغيرالفاعل ، والأفعال «تعرفون» و«تنكرون» ودلالة «الفاء» ثم ما في قوله « مَن كره فقد بَرئ» من اقتصاد في اللغة لتحقيق سخاءٍ في المعنى ، ومناظرته بقوله «ومن كره فقد سلم» ثم الوقفة البَسِيطة عند «ولكنْ مَن رَضِيَ وتابع»

كان له مع كلِّ تبصّراتٌ كاشفةٌ عمَّا وراءها ، فهُو يَرَى في اصطفاء صِيغةِ البناء لغير الفاعل في «يُستعمَل» دلالة على أنَّ أولئك الأمراءَ ما جاءوا على مُراد شعوبِهم ، وإنَّما فُرضوا عليهم بأيّ مِن سُبل الفَرضِ وهِي في عَصرنا ومِصرنا عديدةٌ متنوّعةٌ .

وهنا يلتفتُ الشَّيخُ إلى الواقع المُحيط ، فيستفزّ الحَميّةَ . ويُسجّل على الأمّة استكانتَها إلى أفاعيلِ مَن تولوا أمرها قهرًا وخديعةً ، فسَعوا إلى أن يتخذُوا الأمّة مكانا ومكينا ميراثًا يتناقلوه جيلاً من بعد جيل .

وسيأتي زمانٌ يقرأ النَّاسُ هذا التاريخ الذي نعيشه ، فيدهشُون من أمرِنا كيف بلَغ رضانا بأنْ نُظلم ، لا ، بلْ نُستنْعج .

والرَّسولُ صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ كما استعاذَ بالله تعالى مِن أن يَظلِم أحدًا استعاذَ بالله تعالى من أن يُظلم : «اللَّهُمَّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْفَقْرِ وَالْقِلَّةِ وَالذِّلَّةِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ أَظْلِمَ أَوْ أُظْلَمَ» .(١)

وفي الاستعاذةِ بالله تعالى من أن يُظلَم ، معنًى جليلٍ ، فمن رَضِيَ بأن يكونَ مظلومًا وهو قادرٌ عن أن يدفعَ الظُّلم عن نفسِه وقومِه ثمَّ لا يفعلُ إنّما هُو كافرٌ بنعمةِ الله عليه أنْ كرَّمه ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ (الإسراء:٧٠) وفِي الوقتِ نفسِه هو يُعملُ برضائِه بأنْ يكون مظلومًا على استهتار الظالم في ظلمِه ، فيعمُّ الفساد في الأرض ، والله سُبْحانَه وَتَعالَى يقول : ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (الأعراف:٥٦) ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (الأعراف:٨٥) فالظالمُ إذا لم يجدْ منْ يقفُ في وجه ظلمه ويأخذ على يديه ، استعذبَ ذلك وأدْمَنَه ، فغدا الظلمُ عنده عبادةً يمارسُها لذاتها ، والرَّسول صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ قد جعلَ مِن حقِّ الظَّالم علينا أن نَمْنعَه عن ظلمِه :

روى البُخاري في كتاب «المظالم» من صَحيحه بسندِه عَنْ أَنَسٍ ـ رضى الله عنه ـ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا» . قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، هَذَا نَنْصُرُهُ مَظْلُومًا ، فَكَيْفَ نَنْصُرُهُ ظَالِمًا ؟ قَالَ : «تَأْخُذُ فَوْقَ يَدَيْهِ»

---

(١) رواه أبو داود في «الوتر» من سننه ، وراه أحمدُ في مسنده ، وصحَّحه الألباني في صَحيح وضعيف سنن أبي داود . حديث رقم (١٥٤٤) وفي صَحيح أبي داود (١٣٨١) وغيرهما .

جعل الأخذ على يد الظالم نصراً له ، فهو حقّ له على من ظلَمه ، وعلى الأمَّةِ جمعاء . فاستكانُة المظلومِ ورغبته عَن التَّصدِّي لظالمِه هو في الوقتِ نفسِه يستَحيلُ إلى ظالم :

ظالم نفسَه من أن يحميها ويقيها من المَذلة وقد كرَّمها الله تعالى . وظالم لظالمِه ، حيثُ لم يمنعه من أن يظلِمَه ، فهو بترك التّصدّي له أعان الشَّيطان على أخيه الّذي ظلمه ، والرَّسُولُ صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ نهانا عَنْ أنْ نُعين الشّيطان على إخوانِنا فقال صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ : « لاَ تَكُونُوا عَوْنَ الشَّيْطَانِ عَلَى أَخِيكُمْ» (البخاري : الحدود) فالتخلية بيْن الظالمِ وظلمِه هو من صَميم إعانة الشيطان عليْه ، فمن حقه على رعيته أن يكفوه عن ظلمه ، وأن لايسْكتوا على ما يبدر منه ، ولاسيما في باكر حكمه ، حيثُ يكون أقربَ إلى أن يسمع لهم ، ليمكن لنفسِه ، على نحو ما تراه من باكر حكم الطغاة .

من صور عون الشيطان على الأخ أن تعرضَ عنْه ، وتدعه فريسة للشيطان ولأهواء النفسِ ، فاحتمالِ صُحبته بقصد وقايته من أن لا تسمع أذنه نصحًا ، وترى عينه صَنيعة خيرٍ هو من العون له على الحق .

إن إفراد الظالمِ والتخلّي عن وعظه ، وعن تذكيره بالحسنى هو من التقصِيرِ البالغِ بحقه أخًا ابتلي بالولاية العامة ، فحسب هو جهالةً أنّه أكرم بها ، ولو علم لأدرك أنّه إنما بها فتن ، فنعمت المرضِعة وبئست الفاطمة .

إن من واجب العلماء أن يبادروا إلى الإحاطةِ بوليّ الأمر العامّ ، لا طمعًا في ما في يديه من أموالِ المسلمين ، فإنَّ الذي في قلوب العلماءِ خيرٌ من الدُّنيا وما فيها ولا إقامةً للشّعور بعظمته من أنّه يأتيه العلماء إلى إيوان سلطانه ، وإنما من باب (لايُسلِمه) يحيطون بِه رجاءَ أن لا يُترك فريسةً للشيطان،وجنده، فيعبثون في قلبِه ونفسِه ، ولا سيما أنَّ عُظمَ المبتلَيْن بفتنة الولاية العامّة في

عالَمنا العربي خاصةَ ، وعالمنا الإسلامي عامة مقترٌ عليْهم رزق عقولهم وقلوبهم ، فهم أكثرُ العباد حرمانًا من الحكمةِ والرحمةِ ، وهم أيسر العباد على الشيطان وجنده .

إنَّ على العلماء أن يُسمِعوا وليّ الأمرِ العام في ما بيْنهم وبينه أولاً ـ إن أتيح لهم ـ ما أوجبه الله تعالى عليه إزاء رعيتِه من حقوق ، ولا يملُّوا تكرارَ ذلك وتقريرَه وتوطينَه في سمعه ، وأن يُسمعوه أنّه لا يجبُ له على رعيَّته شيْءٍ من الطاعة ، والمناصرة له إلا من بعدَ أن يُحقِّق هو حقين عليْه :

الأوّل : حق الله تعالى عليْه .

والآخر : حق شعبِه عليْه[1] .

ثم يأتي من بعدُ حقُّه هو على شعبِه أن يكون له ناصرًا الحقَّ بالحقِّ ، مطيعًا له فيما يرضي الله سُبْحانَه وَتَعالَى ، فإن استجاب والتزم ، فنعمّا ، وإلا وجب على العلماء أن يسمعوه ذلك على مشهدٍ من شعبه إبراء للذمة من جهةٍ ، وإحراجًا له أمام شعبِه من أخرى .

وعلى العلماء أن لا يدعوا العامة تتجرّأ على وليّ الأمرِالعام ، فالجراءة عليْه من العامَّة ولا سيّما في وسائل الإعلام المَفتوح مُضعِفٌ للأمّة . ولهم أن

---

(١) الأصلُ المكينُ القويمُ فِي شَأن بذلِ الواجب ، واستيفاء الحقّ أنّ الأكبر والأقوى من الطرفين عليْه أن يبدأ هو ببذل ما عليْه من الحقِّ للآخرين ، ثُمَّ يكونُ ما له ، وهو لا يستوفيه ، فشأن الكرام أن لا يسْتوفوا حقوقهم من الآخرين .

فالواجب على ولي الأمر بدأً من الوالدين والمعلم وانتهاءً بوليّ الأمرِ العام (الرئيس وما شاكله) أن يبذل لشعبِه أوَّلا كلَّ حقوقهم عليْه ، فإذا وفَى لهم كان له أن يطالبَ بحقّه هو على شعبِه .

والله تعالى ما طالبنا بحقّه علينا من توحيده وطاعته في مرادِه الشَّرعي إلا من بعد أن أفاضَ علينا من نعمِه ما لا يسْتحصَى ، وحتى يبلغَ الواحد منها الحُلم .

يجهَروا بمظالِمهم في أدبٍ وإصرارٍ واحتسابٍ ، ويقين أنَّ الله تعالى معينٌ لهم على أن يتنصفوا : ﴿ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾ (النساء:١٤٨،١٤٩)

فمن سكت على أن يُظلم ، وهو قادِرٌ على أن يدفعَ عن نفسَه أن تظلم كان مُفسدًا في الأرض ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ (المائدة:٦٤) ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ (يونس:٨١)

كلُّ شعبٍ استكان إلى ظُلم ولِيَ أمرَه ، وهو قادرٌ علَى أن يدفعَ عَن نفسِه الظُّلم إنّما هُو نفسُهُ شعبٌ ظالمٌ مفسِدٌ في الأرض . والله تعالى لا يسْتجيبُ دعاءَ فاسدٍ ظالمٍ .

واللهُ تعالى لا يَستجيبُ لدعاءِ المظلوم على الظَّالم وهو قادرٌ على أن يدفعَ الظلمَ عنْ نفسِه ثُمَّ لم يفعلْ ، إنّما يَستجيبه حين يَسْتنفِد المَظلوم كلّ طاقاتِه فِي رفعِ الظُلم عَن نفسِه ، فالله جَلَّ جَلالُهُ إنّما يُحب أن يأكلَ العبدُ من عملِ يدهِ ورفعك الظلمَ عنْ نفسِك بنفسِك من عملِ يدك ، فليس ألذ من أن تستطعم جهدك في رفع الظلم عن نفسِك بنفسك لا بغيْرك .

منْ هنا ندركُ وجهًا مِن وجوه استعاذةِ رسُول الله ﷺ مِن أن يكونَ مظلومًا مثلما استعاذ به تعالى من أن يكون ظالمًا .

وبقي الالتفات إلى ذهاب رسُول الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ إلى الاستعاذة بالله تعالى مِن أمورغير قليلةٍ ، في هذه الاستعاذةِ دَلالةٌ على أنَّ في المستعاذِ منه ما يفتقرُ العبدُ إلى أنْ يطلبَ مِن ربّه جَلَّ جَلالُهُ أن يكونَ له عونًا عليْه ، فالعبدُ أضعَفُ مِن أن يقومَ له وحدَه ، وهذا يلفتُنا إلى ما في المستعاذِ مِنه مِن عظيمِ الخطرِ ، فخطر المُستعاذ منه يُفهمُ في ضوءِ مَكانة المُستعاذَ به وقدرته وجلالِه . وفي الاستعاذةِ بالله تعالَى معنى الإعرابِ لله

سُبْحانَه وَتَعالَى عَن يقين العبد من تجرّده من الحول والقوّة ، وأنّه لا شيْءٍ إلا بالله تعالى ، وهذا تصاعدٌ في معراج العبوديَّة لله تعالى ، وذلك أفضل ما يقومُ فيه المرء ، وأعذبه ، وما استعذبَ أحد مثل استعذابه الاستغراق في التَّحقق بالعبوديّة لله تعالى فعُضَّ عليها بنواجذك ، واحرص على كلّ ما يستبقيك في مقام (إيَّاك نعبدُ وإياك نسْتعين) فإذا حضرتْ نفسك ، فاستعذ بالله تعالى ، فإنّه بمقدار حضور نفسك في خلدك يكون غياب ذكرك الله تعالى فيه .

لا يجتمعان : الله سُبْحانَه وَتَعالَى ونفسُك . فاختر لها حضورَها أو حضورَ جلالِ خالقِها؟

* * *

obeikandl.com

الْقَضية السّابعة
الموقف من دخول الدّين في السّياسة

لم يأت الإسلام دينًا يحاجزُ أتباعه عن تعميرِ دنياهم ، بل جاء ليحملهم إلى تعميرِها لتعمرُ آخراهم ، فموقفُ المسلم من تعميرِ أخراه هو من موقفِه من تعمير دنياه ، فمن خرّب دنياه هو لا محالة المخرّبُ أخراه ، ولكنَّ الإسلام هدَى إلى سبيلِ التعمير في الدّنيا هو سبيلُ إسلامِ الوجه لله تعالى في جميع الأمر وسلوك مبدأ سمعنا وأطعنا في ما أمرَ به الوحيُ وما نهَى عنه .

والله تعالى يَقُولُ ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات:٥٦) أي إلاَّ ليعمروا حياتهم الدّنيا بطاعتي . لأعمِّر لهم آخرتهم برحمتي ورضواني . فمن لم يُدخل نفسَه جنَّة الله تعالى في دنياه بتعمير دُنياه بطاعة الله تعالى على وَفق ما شَرع في وحيه (فليغرسها) ، فإنّه لن يدخل جنةَ الله سبحانه وتعالى في أُخراه . وكلُّ هذا لا يكونُ إلا بضربٍ من العلمِ والحِكمة والسّياسة : سياسة كلّ شيءٍ ليستقيم إلى ما خلقَ له ، وترويضِه لما يراد منه أن يفعل .

ليست السّياسةُ إلا منهاج ترويضِ العصيّ إلى ما يرادُ منه أن يَكون ، وكلّ ما في الإسلام مِن عقيدة وشريعة ، وأَخلاق هو بابِ الترويض والسياسة ، فالدّين في أصلِه سِياسةٌ ، أولها سِياسة النفس لتخضع لما يريده منها خالقُها ، فتأتي حركتها علَى وفق مرادِه الشَّرعيّ ، وتسلم الوجَه لمُراده القدريّ . .

والّذين ينعقون بأنّه لا دين في السّياسة بدعوَى أنَّ الدينَ مقدّس والسّياسة مُدنّس إنّما هي مقالة إبليسية يُراد بها تنحيةُ الدّين عن السّياسة لِيعبثَ السِّياسيون في الحياة دون ضابطٍ أو رقيبٍ . وهُمْ عندِي ثلتان :

ثلة من أولئك الناغقون تجهلُ الدّين كما تَجهل حقيقة السّياسة ، وأنّها ليست كما يقال فن الممكن ، وفن بلوغ الغاية من أقصرِ طريقٍ وإن كان طريق الشيطان ، وأنَّ الاعتداد بالغاياتِ لا بالوسائل

ما تكونُ السّياسة كذلك ، وإنّما هي التَّرويض إلى الحقِّ بالحقّ .

وثلة تسعى إلى إضلالِ الأمة ، وإخراجها عن محجتها ، مع علمها بأنَّ دخول الدّين يصلح السّياسة ، لأنّ هذا الدين إنّما نزلَ لسياسةِ الناس ، وسياسة أحوالهم في حياتهم على النّحو الذي يسعدهم ، ويرضي خالقهم .

والشيخُ يحتفِي كثيرًا بتقرير أن الدّين الإسلامي داخل في كبدِ السّياسة ، وما من شيءٍ منها إلا والدّين قائمٌ فيه . يقول : « كلّما طالَ نظري في عنايةِ رسُولِ الله ﷺ بأمنِ الناسِ وسلامتهم وإقامةِ لُحمةِ المودّةِ والتآلفِ والتساند بيْنهم ثُمَّ حِمايةِ الجماعةِ مِن أن تتسلّلَ لها الأمراضُ الاجتماعيّة المُزعجة من الجهل والفقرِ والظلمِ والقمع والإهانةِ ، ثُم أقرأُ كلامًا يقول إنّ دخول الدّين فِي السّياسةِ عودةٌ إلى عصُورِ الظلماتِ أقطعُ بأنّ هؤلاءِ لم يقرؤوا شيئًا في الدين .

وأنا لا أفهم دخول الدين في السّياسةِ إلا على هذا الوجهِ الذي أقُوله ، وهو حمايةُ النّاسِ من الظلمِ والقهر والإهانةِ ثُم التساند والتّآلف ووضع اليدِ فِي اليدِ ، وإحسان العمل ، وإتقانه ونظافة النَّاس من الغشّ والكذب إلى آخره ، وهذا هو الحكمُ بِما أنزلَ اللهُ ، وكلّ ما وراءَ ذلك فِيما أعلمُ ليس هو المطلوب . . . »[1]

الشيخُ كما ترى يتولى تصحيح مفهوم النّاسِ عن الدّين وعن السِّياسة ، وأنَّ الفهم الصَّحيح يرَى أنَّ العملَ السّياسيّ النَّظيف من مبدأ تحقيق الغاية بأي سبيلٍ ، وإن كان سبيلَ الشيطان إنّما هُو مِن الدِّين ، وأنَّ الدّين في جوهره سِياسةُ النّاسِ والحياة إلى ما فيه العزة والسعادة والأمن والأمان .

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ١٢/١ .

وقد بيَّن الشيخُ أن اختلافنا في تحرير مفهوم الدّين وبيان حقيقته وجوهره ، واختلافنا في فهم حقيقة السّياسة ورسالتها هو الذي جعلَ منا فريقًا يقول بدخولُ الدين في السّياسة ، وفريقًا يقُول لا دين في السياسة مع غياب الوعي المدقق عند كلٍ ، وهذا الغيابُ يجعلُ الخلاف يطولُ ويشتد والواجبُ العملُ على إنهاءِ التَّنازع والتفرغ لتنميةِ الأمَّة وتقدمها الَّذي هُو الفريضة . . .[1]

ويقُول : « الدين حمايةٌ ورعايةٌ وصلاحٌ للجماعةِ ، وأمنٌ وأمان في الجماعة ، وأمن وأمان للفردِ ، وليس تكاليف تعوقُ حركة الحياة ، وتحدُّ من حرية الإنسانِ ، وتعودُ بِه إلى عصُورِ التخلّف ، والظلمات كما يروّج أعداؤه ، وإنّما كلّ أمرٍ فِيه جلبٌ لمصلحةِ الناسِ ، وكلّ نهي فيه دفع لمضرّة عن النّاس . . . .

وكلّ الأديانِ السّماويةِ متّجهةٌ إلى هذه الحراسةِ ، وهذه الحماية ، وهذا مِن أهمّ مقاصد النّبواتِ كلها ، وهي مساحةٌ متسعةٌ جدًّا يتلاقَى فِيها أهل الكتابِ جميعًا ، ولذلك تجد مساحات التقاربِ بيْن أهلِ الكتبِ السماويةِ أوسع بكثير من مساحات الخلاف . . . »[2]

وغير خفيّ أن الشيخ يريد أنَّ مساحات التقارب في غيرِ باب العقيدة ، أما باب العقيدة فالذي بين أهل الإسلام ، وأهل الكتاب من اليهود والنصارى إنما هو جد متباعد ، فهم لا يؤمنون بالله الذي جاء وصفه وحليته في القرآن والسنة ، لا يؤمنون بالله الذي جاءت سورة « الصمد » مستجمعة أصول المعرفةِ بِه . أمّا في باب القيم الأخلاقيه فإننا نتقاربُ في بعضِه .

وبعضُ القيم الأخلاقِية تجدها عند من ليس له دين ، وفرقٌ بين ممارستنا نحن أمة النبي ﷺ لمكارم الأخلاق ، وإتيان غيرنا بعضًا من القِيم الأخلاقية : إننا نمارسها تعبدًا أي نمارسها ، وجلالُ اللهِ تعالى وجماله وكماله قائم في

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ١٤/١ .
(٢) المرجع السابق : ٢٧/١، ٢٨ .

قلوبنا . وهذا ما لا يتحقق عند غير أمةِ الإسلام . ومن هنا كانت ممارستنا لمكارم الأخلاق لا تتطلعُ إلى عوضٍ من أحدٍ من الخلائق ، نمارسُها لأنا جديرون بها ، وإن كان غيرُنا ليس جديرًا بأن يُعامل بها ، فالأمرُ الكليُّ عندنا أن نعاملَ النَّاسِ بما يلِيقُ بنا أمةَ الإسلام ، لا بما يليق بغيرنا .

ولو أن الذين يقُولون لا «دين» في«السياسة» قاموا بدراسة ما كان من سيدنا رسول الله صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ من تأسيس الدّولةِ ، وما كان منه في رعايته الناس والمكان والعقيدة والشريعة وحمايتها ، وما كان من علاقته بجيرانه من غيرِ المسلمين ، وما كان من علاقته بأعدائه ، ثم ما كان من الخلفاء الراشدين الأربعة ، أين يقع كل ذلك من أصول«العمل السياسي» بمفهومه عندهم ، أله مقامٌ عليّ فيه أم أنه الذي كان من النبيّ صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ ومن الخلفاء الراشدين من بعده ليس من العمل السياسي في شيْءٍ . وأنه خبط عشواء .

هل عقد رسول الله صَلّى اللهُ عليه وَعَلى آلِه وصَحبه وسلّم أو أحدٌ من الخلفاء الراشدين عقدًا أو معاهدة فيها شيْءٌ مخالفٌ لِما شرعَ الله سُبْحانَه وَتَعالَى ، أو أعاقه شرعُ الله تعالى عن الوصول إلى مرادِه وما ينفعُ الأمة؟

لا يستطيع أحدٌ أن يقولَها ، فالذين يحسبون أن في الالتزام بمراد الله الشرعي أمرًا ونهيًا سيعيقهم عن الوصُول إلى مبتغاهم ، فإن مرد ذلك ليس إلى مراد الله الشرعيّ أمرًا ونهيًا بل إلى وهنهم المَهارِيّ ، فهم ضعفاء في ممارسة السياسة ، فأرادوا تجاوز وهنهم المهاري الوظيفي بالتخلي عن شرع الله تعالى على الرغم من أن الأيسر لهم أن يعملوا على تمكنهم من مهاراتهم السياسية ، وأن يحسنوا عملهم ويحيطوا بأصوله ومناهجه وأدواته ، ومهاراته . ذلك هو السَّبيلُ القويمُ الذي يَجعلُ مِن الدِّين خادمًا للسّياسة ، ومحقّقا لأغراضِ الأمَّة في جميعِ مجالات الحياة الدّاخلية والخارجية .

روى البخاري في كتاب «العلم» وكتاب «الرقاق» بسنده عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ بَيْنَمَا النَّبِىُّ ﷺ فِى مَجْلِسٍ يُحَدِّثُ الْقَوْمَ جَاءَهُ أَعْرَابِىٌّ فَقَالَ مَتَى السَّاعَةُ فَمَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُحَدِّثُ ، فَقَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ سَمِعَ مَا قَالَ ، فَكَرِهَ مَا قَالَ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ بَلْ لَمْ يَسْمَعْ ، حَتَّى إِذَا قَضَى حَدِيثَهُ قَالَ « أَيْنَ ـ أُرَاهُ ـ السَّائِلُ عَنِ السَّاعَةِ» . قَالَ هَا أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ . قَالَ « فَإِذَا ضُيِّعَتِ الأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ» . قَالَ كَيْفَ إِضَاعَتُهَا قَالَ « إِذَا وُسِّدَ الأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ» . ذلك أنه إذا وسد الأمر إلى غيرأهله فلن يكون منه إلا الفساد والإفساد ، وحينئذٍ تفسد الحياة ، فلا يبقَى إلا قيام الساعةِ ، لأنها لا تقوم وفي الأرض صلاح وإصلاح .

ومن هنا حذر رسُول الله صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعلَى آلِهِ وَصَحبِهِ من أن يتولى المرءُ عملا عامًّا يعلم أنه ليس هو له بأهلٍ .

روى أبو بكر محمد بن هارون الرُّوياني (ت : ٣٠٧هـ) بسنده عنْ عَبْدُ اللَّهِ ابْنُ عَيَّاشٍ ، عَنْ أَبِيهِ : أَنَّ يَزِيدَ بْنَ الْمُهَلَّبِ لَمَّا وَلِيَ خُرَاسَانَ قَالَ : دُلُّونِي عَلَى رَجُلٍ حَامِلٍ لِخِصَالِ الْخَيْرِ ، فَدُلَّ عَلَى أَبِي بُرْدَةَ بْنِ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ ، فَلَمَّا جَاءَهُ رَآهُ رَجُلا فَائِقًا ، فَلَمَّا كَلَّمَهُ رَأَى مَخْبَرَتَهُ أَفْضَلَ مِنْ مَرْآتِهِ ، قَالَ : وَإِنِّي وَلَّيْتُكَ كَذَا وَكَذَا مِنْ عَمَلِي ، فَاسْتَعْفَاهُ ، فَأَبَى أَنْ يُعْفِيَهُ ، فَقَالَ : أَيُّهَا الأَمِيرُ ، أَلاَ أُخْبِرُكَ بِشَيْءٍ حَدَّثَنِيهِ أَبِي أَنَّهُ سَمِعَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ : هَاتِهِ ، قَالَ : إِنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ :

« مَنْ تَوَلَّى عَمَلا وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ لِذَلِكَ الْعَمَلِ بِأَهْلٍ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»

وَأَنَا أَشْهَدُ أَيُّهَا الأَمِيرُ أَنِّي لَسْتُ بِأَهْلٍ لِمَا دَعَوْتَنِي إِلَيْهِ ، فَقَالَ لَهُ يَزِيدُ : مَا زِدْتَ عَلَى أَنْ حَرَّصْتَنِي عَلَى نَفْسِكَ ، وَرَغَّبْتَنَا فِيكَ ، فَاخْرُجْ إِلَى عَهْدِكَ

فَإِنِّي غَيْرُ مُعْفِيكَ ، فَخَرَجَ ثُمَّ أَقَامَ فِيهِ مَا شَاءَ أَنْ يُقِيمَ ، فَاسْتَأْذَنَهُ بِالْقُدُومِ عَلَيْهِ فَأَذِنَ لَهُ ، فَقَالَ : أَيُّهَا الأَمِيرُ ، أَلا أُحَدِّثُكَ بِشَيْءٍ حَدَّثَنِيهِ أَبِي أَنَّهُ سَمِعَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ : هَاتِهِ ، قَالَ : « مَلْعُونٌ مَنْ سَأَلَ بِوَجْهِ اللَّهِ ، ومَلْعُونٌ مَنْ سُئِلَ بِوَجْهِ اللَّهِ ثُمَّ مَنَعَ سَائِلَهُ مَا لَمْ يَسْأَلْهُ هُجْرًا » ، وَقَالَ : أَنَا أَسْأَلُكَ بِوَجْهِ اللَّهِ إِلا مَا أَعْفَيْتَنِي أَيُّهَا الأَمِيرُ مِنْ عَمَلِكَ ، فَأَعْفَاهُ »[1] حسَّنه الألباني الخبر في السلسلة الصحيحة .

وفي هذا الخبر إنباءٌ بما كان من ولاة الأمر من حرصِهم على تولية من كان « حاملا لِخصال الخير » الخير في جميعِ أمرِه علاقته بربّه سُبْحانَه وَتَعالَى ، وفي علاقته بالنّاس ، وبكل شأن من شؤون الحياة ، علاقته بعملِه وامتلاكه لأدواته : قوة عقلية وعملية ، وأمانةً ، حرصًا على إنفاذ المصلحة العامة .

والله الهادي إلى سواء السبيل .

* * *

(١) مسند الروياني . تأليف : أبي بكر محمد بن هارون الرُّوياني (ت : ٣٠٧هـ) تحقيق : أيمن علي أبو يماني . نشر : مؤسسة قرطبة . القاهرة ط (١) عام : ١٤١٦هـ . ٣٢٦/١ (رقم : ٤٩٥)

obeikandl.com

فاصلة

لسْت فِيما أجريته في هذه الأوراق إلا محاولة إلى أنْ أقدم تجربة لي في قراءة هذا الكتاب وهي تجربة أجريتها ، وما أنا قائم فيه ، وقائمٌ فيّ من شعور بالقهرِ آخذًا بخناقِي يحاجزني عن التمرد عليْه والتخلصِ منه مخافة أن أقع فيما لا يرضَاه الله سُبْحانَه وَتَعالَى ممّا الأمل في غفرانِه جدّ متهالك .

أعلم علم يقينٍ أن هذا الذي نقشته أو نكشته في هذه الأوراق ليس على ما يليقُ بشَيْخنا وسفره ، لا أقوله تواضعًا أو هضمًا للنفسِ بل هو إقرار بالحقيقة التي هي قائمة في صدري منذ عقود ، فإنّ للشيخ في قلبِي ما أسأل الله تعالى أن يجعله ذخرًا لي يوم أنْ ألقاه ممتنًّا عليَّ بِغفرانه ورضوانه ومتفضّلا عليّ بصحبتي الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً .

فليجُد القارئ ، وشيخنا بالصفح عَمّا كان منّي من تقصيرٍ في التفكير والتعبير . فإني عليم بأن الذي جئت به لا يبلغ فرسن شاة . ولولا أن رسول الله صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ قال « يَا نِسَاءَ الْمُسْلِمَاتِ لاَ تَحْقِرَنَّ جَارَةٌ لِجَارَتِهَا وَلَوْ فِرْسِنَ شَاةٍ » (متفق عليْه) ما كنت لأحمله .

والله نسأله أن يسبل سابغَ أستاره علينا ، فلا ينكشفُ منا شيْءٌ البتة لأحدٍ من العالمين في الدّنيا والآخرة ، وأن يرزقنا حُسن الخاتمة في أمورنا كلها ، فإنّه وليّ ذلك والقادرُ عليْه ، والمتفضل به جَلَّ جَلالُهُ . والحمد لله رب العالمين .

فرغت من مراجعته وتحريرِه وسع الطاقة الهزيلة في ظهر يوم الأحد الثالث من شَهرِربيع الآخر عام ١٤٣٨هـ ، والموافق فاتح شهر يناير سنة ٢٠١٧م

المفتقرإلى عفوربه تعالى

مَحمُود تَوفيق مُحمد سَعد

الأستاذ في جامعة الأزهر الشريف

القاهرة ـ مدينة الشروق